أغرب من الخيال

راجي عنايت

لعنة الفراعنة
وهم أم حقيقة؟

دار الشروق

لعنة الفراعنة؟

وهم أم حقيقة

الطبعة الثالثة

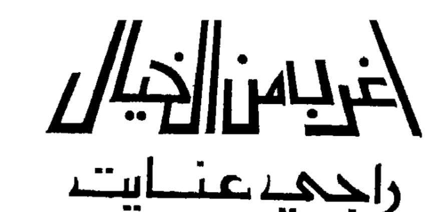
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الرابعة

١٩٩١م - ١٤١١هـ

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE



راجي عنايت

لعنة الفراعنة

وهم أم حقيقة

تصميم الغلاف : حلمى التونى

هــذهِ السِـلسِـلة

ظلّ العلم لزمن طويل يتجنّب الاقتراب من معظم الظواهر الخارقة الغريبة التي تتكرّر في حياتنا ، ومن حولنا . والعلماء الروّاد القلائل الذين حاولوا التصدّي لبعض هذه الظواهر ، صادفوا من الهجوم والسخرية والتسفيه ، ما أقنع باقي العلماء بعدم محاولة الاقتراب من ذلك التيه الحافل بالمخاطر .

وهكذا ، تراكمت الخرافات حول هذه الظواهر ، جيلاً بعد جيل ، ممّا جعل مهمّة الباحث المحقّق أكثر صعوبة ... أصبح عليه أن يعثر على الحقيقة الضائعة ، كالإبرة وسط أكوام القشّ ..

لكن نصف القرن الماضي ، شهد هجمة ضاربة من جانب أوساط البحث العلمي .. هجمة توغّلت بكل شجاعة ، وبكل موضوعية علمية ، في عمق أعماق هذه الظواهر .

هذه السلسلة ، عزيزي القارئ ، تنقل إليك أحدث ما توصّل إليه البحث العلمي حول الظواهر الخارقة والغريبة ، داخلنا .. وحولنا .. ، لتؤكد أننا على أبواب عصر جديد من المعرفة الشاملة ، تزول فيه التناقضات بين وسائل المعرفة البشرية المختلفة ، وتلتقي فيه أقدم العقائد البدائية مع أحدث ما تتعامل معه العقول الالكترونية .

مقدّمة

يقول اوسكار وايلد ، ان عدم الإنتباه العقلي هو أسوأ جريمة ، وان التركيز العقلي على موضوع ما ، لا يفيد فقط في كشف خفايا ذلك الموضوع ، لكنّه على المستوى الأعلى يتيح للإنسان أن يكتشف التوافق والإنسجام في كل مكونات الكون . وهو بهذا يدعونا إلى النظر بعقولنا في كل ما يعرض علينا ، لا نستبعد شيئاً . وأن نقترب من وقائع الحياة بموقف محايد ، دون تعصّب ، أو رفض مسبق .

ويقول الكاتب تشارلز هوي فورت ، الذي عشق كلّ ما هو غير عادي ، أنه ضد التركيب العقلي الحالي للإنسان المعاصر . أنّه يكره ذلك النوع المحدود من التفكير ، الذي يدفع الإنسان إلى الإختيار القسري بين : نعم ، ولا . وهو أساس التفكير الحديث . ويقول أنّه يؤمن بأن كلّ شيء ، مهما بدا ، جدير بالبحث والتأمّل ، فالنتائج الكاملة لا يمكن أن نصل إليها ، إذا ما نحن استبعدنا أيّ عنصر أو ظاهرة من نطاق البحث . فعلى مدى التاريخ ، أدينت وأهملت أثمن الحقائق العلمية ، باسم العلم والتفكير العلمي . ومع ذلك فقد فرضت تلك الحقائق نفسها آخر الأمر . فورت يطالب بتركيبة عقلية جديدة ، قادرة على قبول الحالة الوسط بين نعم ولا ، بين الإيجابي والسلبي ..

ولعنة الفراعنة ، من المسائل التي تحتاج إلى ذلك النوع من التفكير ، الذي يطالب به تشارلز فورت .

لعنة الفراعنة ، تحتاج إلى من ينظر فيها دون رفض مسبق ، أو تحمّس زائف .. يرصد الوقائع ، ويبحث الظروف ، ويرى في مدى ثبات الظاهرة وفقاً لقوانين الإحصاء المعمول بها علمياً . ثم ينظر في كافة الاحتمالات التي قادت إلى وفاة ٢٢ شخصاً ممن اقتحموا مقبرة توت عنخ آمون ، بطرق غامضة .

وهذا هو ما نقدمه في الصفحات التالية . رؤية أمينة للظاهرة ، ومحاولات جادة لتفسير الظاهرة . والسعي لتفسير معنى العبارة التي وجدت منقوشة على لوح فخاري في الحجرة المؤدية إلى حجرة الدفن بمقبرة توت عنخ آمون ، والتي تقول :

«سيذبح الموت بجناحيه ، كلّ من يبدّد سلام مرقد الفراعنة» .

راجي عنايت

المثلّث الصّغير

هل توصل المصريون القدماء إلى طريقة تجعل مقابر فراعنتهم مصائد للموت ؟ وإلا ، فكيف نفسر وفاة ٢٢ شخصاً بطرق غامضة ، هم كل من كانت لهم صلة مباشرة أو غير مباشرة باقتحام مقبرة توت عنخ آمون ؟ كيف نفسر ما أطلق عليه ، في أعقاب هذا ، لعنة الفراعنة ؟ ثم ما معنى العبارة التي وجدت منقوشة على لوح فخاري في الحجرة المؤدية إلى حجرة الدفن في مقبرة توت عنخ آمون والتي تقول : «سيذبح الموت بجناحيه ، كل من يبدّد سلام مرقد الفراعنة» !

كيف استطاع المصريون القدماء تحقيق هذه الحماية لمقابر الفراعنة ؟ هل بأن تركوا داخل المقابر نوعاً من السموم يطول أجله بشكل لا يصدق ؟ أم أنهم زودوا المقابر ببعض المواد الإشعاعية التي تضر بكل من يقتحم القبر ؟ .. هل أقاموا مقابرهم بطريقة تستقطب وتكثف داخلها إشعاعات الطاقة الكونية ؟ ..

لقد بقيت لعنة الفراعنة حتى يومنا هذا ، ظاهرة لا تجد لها تفسيراً علمياً مقبولاً ، ظاهرة لا بد أنها تستمد تأثيرها من الجذور العميقة لمعارف الحضارة المصرية القديمة ، تلك الحضارة التي ظلت على مدى القرون الطويلة مصدر انبهار دائم لدى الحركة العلمية الحديثة ، تباغت العلماء

في كل يوم بجديد من معارفها القديمة ، التي ترغم العلم الحديث بكل تطوره وبكل أدواته على التواضع والتخلي عن الغرور .

كل هذه التساؤلات يتصدى لها ، ويحاول وضع إجابات معقولة لها ، الباحث الألماني فيليب فاندنبرج ، في أحدث دراسة ظهرت حول لعنة الفراعنة .

يتحدث فيليب فاندنبرج عن لقائه بالعالم الأثري المصري دكتور جمال محرز ، فيروي الواقعة التالية :

كنا نجلس عند نهاية حوض السباحة بفندق عمر الخيام ، بالقرب من كوبري ٢٦ يوليو ، بهيكله الحديدي الممتد فوق النيل . كان حديثنا يدور حول الوقائع الشائعة عن لعنة الفراعنة ، والتي تتضمن العديد من الكوارث والمصائب والنهايات المفجعة الغامضة لكل من شارك في الكشف عن قبر توت عنخ آمون ، وغيره من الفراعنة . قال دكتور جمال محرز : «هناك وقائع غريبة غير مبررة في الحياة : » فسألته «إذن ، فأنت لست متأكداً من صحة ما يقال عن هذه اللعنة» . تردد دكتور محرز قليلاً ، ثم قال بحرص منتقياً كلماته بعناية ، وبلكنة إنجليزية يتكلم بها كل من تعلم من المصريين في أوكسفورد أو كمبردج ، قال «إذا ما وضعنا وقائع الموت الغامضة بعضها إلى جانب بعض ، فربما رسخ اعتقادنا في هذه اللعنة ، خاصة أن مثل هذه اللعنات شاعت في الكتابات المصرية القديمة» . ثم ابتسم دكتور محرز ابتسامة مريرة وهو يستطرد قائلاً «أنا ببساطة لا أؤمن بهذه اللعنة . أنظر إلي مثلاً ، لقد أمضيت حياتي العملية غارقاً وسط المقابر الفرعونية ، وتعاملت معظم الوقت مع موميات الفراعنة ..

وهأنذا ، كما ترى ، أعيش سليماً رغم كل هذا ..» .

يقول فيليب فاندنبرج «بعد أسبوع من هذا الحديث ، توفي دكتور جمال محرز ، وهو بعد في الثانية والخمسين من عمره . الغريب في الأمر ، أن الدكتور محرز توفي في نفس اليوم الذي أقلقت فيه راحة القناع الذهبي للملك توت عنخ آمون . في المتحف المصري للآثار الفرعونية الذي كان دكتور محرز يتولى منصب مديره العام ، توجه عمال الشحن في ذلك اليوم إلى المتحف ، وانشغلوا بتغليف القناع الذهبي وغيره من الحلى والأدوات الخاصة بتوت عنخ آمون ، بعد أن تم التأمين عليها بمبلغ ٥٥ مليون دولار ، وحملت الصناديق إلى قاذفة قنابل من طائرات السلاح الجوي البريطاني المتجهة إلى لندن ، حيث كونت مع غيرها من الآثار المعرض الذي أقيم إحتفالاً بالذكرى الخمسين لاكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ، على يد الإنجليزيين ، هيوارد كارتر ، ولورد كارنارفون» .

لورد كارنارفون ... بين السيارات والآثار

يحتل توت عنخ آمون مركز الصدارة في قصص لعنة الفراعنة التي يقال أنه قد راح ضحيتها ما يزيد على ٣٥ عالماً وباحثاً أثرياً . ومن المعروف أن حكم توت عنخ آمون لم يزد على تسع سنوات ، من عام ١٣٥٨ إلى عام ١٣٤٩ قبل الميلاد . كما أنه لم تكن له أهمية تذكر في التاريخ المصري القديم ، بخلاف ما تم في عهده من هدم لأركان الفلسفة التي أرسى حماه أخناتون قواعدها . وحتى في هذا لم يكن توت عنخ آمون سوى الواجهة التي عمل من خلفها الكهنة ، أصحاب النفوذ الحقيقي .

ولقد استمد توت عنخ آمون أهميته ، من الاكتشاف المتأخر نسبياً لمقبرته ، التي لم تتعرض لما تعرضت له مقابر غيره من الملوك من نهب وسلب وتخريب .. كما استمد أهمية خاصة من سلسلة حوادث الموت الغامضة التي أعقبت اقتحام مقبرته .

ومع تعدد حوادث موت علماء الآثار في ظروف غريبة وغامضة قبل اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ، إلا أن هذه الحوادث لم ينظر إليها بشكل خاص ، إلى أن مات في ١٥ أبريل ١٩٢٣ لورد كارنارفون الذي ساهم في التنقيب عن قبر توت عنخ آمون ، وكانت وفاته في ظروف وملابسات غير عادية .

ولكن ، ما الذي يدفع لورداً بريطانيا ثرياً إلى الانشغال بالموميات ، والآثار المدفونة ؟ قد نصل إلى إجابة على هذا التساؤل ، إذا ما تأملنا حياة وشخصية جورج هربرت ، الايرل الخامس لأسرة كارنارفون .

ولد جورج كارنارفون عام ١٨٦٦ ، وكان طفلاً عادياً بالنسبة للأطفال في زمنه وظروفه . أمضى سنوات حياته الأولى في هايكلير ، وسط الأرض الزراعية التي يملكها أبواه وبعد أن انتهى من التعليم الخاص الذي توفر له في بيته ، التحق بايتون . وأثناء دراسته في كلية ترينيتي بجامعة كمبردج بعد ذلك ، عرف بأمرين ، تفوقه في ركوب الخيل ، واحتفاظه في درج قمطره بثعبان حي ، طوال فترة دراسية كاملة ! ..

مات والده وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، فبدأت مسؤوليته عن إدارة ممتلكات الأسرة الواسعة ، ولكنه عاش في ذلك الوقت حياة عابثة لاهية . كان مهووساً بقيادة السيارات . ويعتبر كارنارفون من أكثر

الذين ساعدوا على تنشيط وتطوير سباق السيارات . وكان يمتلك عدة سيارات في فرنسا ، عندما لم يكن قد سمح بعد بتسيير السيارات في انجلترا .

أما كيف تحول هوسه بالسيارات إلى اهتمام بالآثار المصرية القديمة ، مما أدى به إلى كشف مقبرة توت عنخ آمون ، التي أثارت عليه لعنة الفراعنة ، فهذا ما يحتاج إلى تفسير .

كان يقوم برحلة في سيارته عبر ألمانيا عندما وقع الحادث . كان معه في السيارة سائقه إدوارد تروتمان ، الذي رافقه في رحلاته على مدى ٢٨ عاماً . وكانت السيارة تنطلق مسرعة في الطريق الخالي المؤدي إلى سشاولباخ حيث تنتظر ليدي كارنارفون ، والطريق يمتد منبسطاً أمام السيارة فجأة ، وبينما السيارة ترتقي الطريق الآخذ في الارتفاع ، ظهرت أمامها وسط الطريق حفرة عميقة .

حاول السائق تفادي الحفرة العميقة ، وانحرف بالسيارة إلى الجانب المزروع من الطريق ، فارتطمت العجلات بحجارة كبيرة ، فانفجر إطاران من إطاراتها . دارت السيارة حول نفسها عدة مرات ، واستقرت مقلوبة . وخلال هذا كان جسم السائق قد اندفع عدة أقدام بعيداً عن السيارة . ولحسن حظ السائق تروتمان أنه سقط بمعطفه السميك على أرض رخوة موحلة ، مما امتص أثر الصدمة .

نهض السائق على الفور ، فوجد سيده غائباً عن الوعي ، واستطاع أن يجذبه من داخل السيارة بعيداً عنها ، ثم راح يتحسس نبضه الذي بدا بطيئاً على وشك التوقف . مضى السائق مسرعاً يبحث عن نجدة ، فالتقى ببعض الفلاحين في مزرعة قريبة . اختطف منهم وعاء الماء وأسرع

يعدو طالباً منهم اللحاق به . ألقى تروتمان الماء على وجه سيده ، فعادت دقات قلبه إلى قوتها الطبيعية . وعندما وصل المزارعون لم يفهموا شيئاً من كلمات السائق ، لكنه استطاع بالاعتماد على لغة الاشارة ، أن يفهمهم حاجته العاجلة إلى طبيب . وقال الطبيب عندما حضر أن حالة كارنارفون خطيرة . كان وجهه متورماً بحيث اختفت معالم الوجه ، وأصيبت ساقاه بجروح كبيرة وكسرت إحدى رسغيه ، كما فقد الرؤية ، بالإضافة إلى إصابات في عظام الفك .

الالتقاء بكارتر

أجريت للورد كارنارفون عدة عمليات جراحية ، لكنه لم يسترد عافيته تماماً . بقيت لديه متاعب في التنفس ، خاصة عندما يحل الطقس الإنجليزي الرطب . وكوسيلة للهرب من الرطوبة ، سافر إلى مصر خلال أشهر الشتاء عام ١٩٠٣ ، ثم تكررت الرحلة بعد ذلك كل شتاء إلى مصر .

مع ثقافة كارنارفون وخبرته بالفنون ، وخلال أشهر الشتاء التي أمضاها في مصر ، كان من الطبيعي أن ينمو لديه الاهتمام بالآثار المصرية القديمة . وهكذا ، بدأ أولى حفرياته الأثرية في ثالث زيارة له قام بها إلى مصر . وعندما لم تكلل جهوده بالنجاح ، لجأ إلى سيرجاستون ماسبيرو ، مدير متحف الآثار المصرية في ذلك الوقت ، يسأله النصيحة . وكان ماسبيرو هو الذي قدم إليه هيوارد كارتر ، وعرفه عليه .

كان كارتر رساماً انجليزياً ، وعالماً في الآثار . أمضى وقتاً طويلاً في مصر منذ عام ١٨٩٠ . وفي مقابل خبرة كارتر وحماسه ، كانت مشكلته الوحيدة هي التمويل . عمل في أوقات متفرقة كخبير في الآثار ، وكمسؤول عن بعض المشروعات الأثرية . وسبق له أن اكتشف مقبرتين في وادي الملوك ، بالضفة الغربية للأقصر ، لحساب راعيه ومموله الأمريكي تيودور دافيد ، رجل المال والمحامي المتقاعد القادم من رود أيلاند ، والذي كان يتجول في مصر خلال ثمانينات القرن التاسع عشر .

بعد عدة سنوات من البحث عن الآثار ، نشر كارتر وكارنارفون كتاباً عن النتائج المتواضعة التي وصلا إليها خلال التنقيب ، تحت عنوان «خمس سنوات من التنقيب في طيبة» . ثم واصلا الحفر والتنقيب ، يبحثان عن مقبرة فرعون ما ، قد تكون مختفية عن الأنظار في وادي الملوك . كان كارتر يؤمن بهذا استناداً إلى بعض الشواهد المتفرقة . يقول الباحث الأثري الأمريكي جيمس هنري بريستيد : «خلال موسم ١٩٠٧ - ١٩٠٨ ، وجد العاملون مع السيد دافيد ، مخبأ لأوان فخارية محروقة كبيرة ، تحتوي على بعض اللوازم الجنائزية ، من بينها لفافات كتانية تحتوي على بعض الأدوات التي تستخدم في المراسم الجنائزية . وقد صرف دافيد النظر عن هذا الكشف ، ولم يعطه أهمية خاصة . وكان من الممكن أن يضيع هذا الاكتشاف ، لولا ما لاحظه هربرت ونيلوك من متحف متروبوليتان من أختام على فوهة الأواني والجدار ، والخاتم الذي على أحد اللفافات الكتانية .. وقد قرأ على تلك الأختام إسم .. «توت عنخ آمون» .

كذلك اكتشف دافيد في حفرة بأحد القبور صندوقاً خشبياً ، يحتوي على رقائق ذهبية حفر عليها إسم توت عنخ آمون . فظن أنه قد اكتشف مقبرة توت عنخ آمون . إلا أن كارتر تشكك في هذا الظن . وكان من رأيه أن ملكاً مصرياً قديماً لا يمكن أن يدفن في مثل هذا القبر المتواضع ، خلال الأسرة الثانية عشرة . لكن بقي سؤال بلا إجابة : أين إذن قبر ذلك الفرعون ؟

جرت معظم الحفريات التي قام بها دافيد في الأماكن التي اشتبه كارتر في وجود المقبرة الملكية بها ، بعد أن حصل على إذن بالتنقيب عام ١٩٠٢ من الحكومة المصرية ولم تكن سلطات القاهرة تتوقع أن يجد دافيد شيئاً ، فقد سبقه إلى التنقيب في هذه المواقع ، المغامر الإيطالي جيوفاني باتيستا بلزوني ، وأعلن عام ١٨٢٠ يأسه من الوصول إلى شيء .

لم تؤثر هذه الحقيقة في حماس كارتر ولورد كارنارفون ، فواصلا التنقيب ، إلا أن نشوب الحرب العالمية الأولى أوقف نشاطهما ، ولم يتيسر لهما مواصلة هذا الجهد إلا بعد ثلاث سنوات .

في ذلك الوقت لم يكن أحد يهتم بتسجيل تفاصيل الحفريات التي تجري : من الذي قام بها ، وأين ، ومتى ؟ وللبحث عن أي شيء كان الحفر ؟ لذا فقد قام كارتر برسم خريطة في عام ١٩١٧ ، يسجل عليها المسح الشامل للمنطقة بشكل منظم ، وقدماً بقدم . وأشرف في نفس الوقت على إزاحة الكتل الضخمة من الأنقاض التي تراكمت خلال سنوات التنقيب السابقة . ومع ذلك فلم يصل إلى شيء . وما أن حل ربيع عام

١٩٢٢ ، حتى كاد لورد كارنارفون يفقد الأمل ، ويتوقف عن التنقيب . لولا أن كارتر طلب منه فرصة أخيرة .

اختار كارتر لفرصته الأخيرة أن ينقب تحت قبر رمسيس السادس ، وحصر مثلثاً صغيراً لم يسبق التنقيب فيه ، حرصاً على عدم سد مدخل مقبرة رمسيس أمام السائحين ، وانتظاراً لانقضاء موسم السياحة . كان على كارتر في أول الأمر ، أن يزيل مجموعة أكواخ حجرية بدائية ، بناها العمال قديماً فوق هذا الموقع . وعندما تم ذلك ، وجد كارتر أن ارضية المكان مغطاة بحجر الصوان .. وكان هذا في حد ذاته مؤشراً على احتمال وجود مقبرة بأسفله .

يوميات مقبرة

ست سنوات قضاها الرجلان في البحث عن شيء لم يكونا متأكدين أصلاً من وجوده . ست سنوات يلح عليهما فيها كل يوم خاطر أن يكون هدفهما مجرد وهم . ثم فجأة .. تم كل شيء خلال أسابيع قليلة ! .

٢٨ أكتوبر ١٩٢٢ : وصل كارتر إلى الأقصر بدون كارنارفون واستأجر فريقاً للحفر .

١ نوفمبر ١٩٢٢ : بدأ كارتر التنقيب في موقع جديد من وادي الملوك ، عند الركن الشمالي لمقبرة رمسيس السادس . حفر حفرة في اتجاه الجنوب وسط طبقة الصوان التي تشكل أرضية الأكواخ السابق اكتشافها .

٤ نوفمبر ١٩٢٢ : كان كارتر يركب بغلته إلى موقع الحفر كل صباح . في هذا اليوم كان اندهاشه كبيراً للصمت الغريب الذي يسود

المكان . فجأة أبصر رئيس العمال يعدو نحوه وقد ظهر عليه الانفعال الشديد ، يقول «سيدي .. لقد اصطدمت فؤوسنا بدرجة منحوتة في الصخر ، أسفل أرضية الكوخ الأول ! » .

٥ نوفبر ١٩٢٢ : عند عصر هذا اليوم ، تم الكشف عن أربع درجات . لم يعد هناك أدنى شك في الأمر . هذا الدرج يقود إلى مقبرة منحوتة في الصخر . ولكن .. هل هي مقبرة لفرعون ؟ هل ستكون سليمة أم منهوبة ؟ .. ما ان حل المساء حتى كان الحفر قد كشف عن ١٢ درجة أخرى . وظهر باب حجري محكم الإغلاق . وعلى الباب ظهرت بعض الأختام بها رسم لابن آوى ورسوم لتسعة أسرى . وهي صورة للأختام الشائعة في مدينة الموتى بوادي الملوك . وقد رجح هذا أن المقبرة لم تتعرض للسلب والنهب .

٦ نوفبر ١٩٢٢ : عاد كارتر إلى الضفة الشرقية للأقصر ، وأبرق للورد كارنارفون الذي كان بانجلترا في ذلك الوقت . قال في برقيته «أخيراً وصلت إلى اكتشاف مدهش بالوادي . مقبرة رائعة أختامها سليمة . ردمنا كل شيء مرة ثانية انتظاراً لوصولك . خالص التهنئة» .

٨ نوفبر ١٩٢٢ : أرسل لورد كارنارفون برقيتين متعاقبتين «أصل قريباً» . ثم «من المفترض أن أصل الإسكندرية في العشرين من هذا الشهر» .

٢٣ نوفبر ١٩٢٢ : وصل لورد كارنا فون إلى الأقصر ، مصطحباً معه ابنته ليدي ايفيلين هوبرت .

٢٤ نوفبر ١٩٢٢ جرى تنظيف المدخل ورفع الأتربة والحجارة ، وتركت المقبرة لحراسة فرقة من الجنود المصريين .

٢٥ نوفمبر ١٩٢٢ : تم تصوير أختام الباب ، وجرى فتحه بعد ذلك ، وظهر للعيان سرداب منحوت . عند إخراج ما به من ردم عثر في هذا الردم على جرار مكسورة من الالبستر ، ومقابض أختام منثورة وسط التراب والحجارة . وهذا يفيد أن المقبرة سبق فتحها واقتحامها ، ثم إغلاقها ثانية .

٢٦ نوفمبر ١٩٢٢ : على بعد ٣٥ قدماً من الباب الحجري ، وصل عمال الحفر إلى باب حجري آخر وجدت على الباب أختام مدينة الموتى التقليدية ، وكذلك أختام عليها شعار توت‌عنخ آمون .

النظرة الأولى

يصف كارتر الساعات الأخيرة من هذا الكشف العظيم في كتابه «مقبرة توت عنخ آمون» ، فيقول :

«عندما شرع العمال في رفع الأنقاض من الجزء السفلي من السرداب ، بدأ عملهم بالنسبة لنا بطيئاً للغاية ، إلى أن ظهر الباب بأكمله واضحاً أمامنا .. لقد اقتربنا من اللحظة الحاسمة .. بيدين مهتزتين أحدثت ثغرة في الركن الأيسر لأعلى الباب .. ثم الظلام ، أو الفراغ المعتم يبدو من هذه الثغرة .. وعندما أدخلت القضيب الحديدي في هذه الثغرة ، تأكدت أن ما خلف الباب فضاء وليس ردماً من الأحجار والأتربة كالذي صادفنا يملأ السرداب . أجريت اختباراً لطبيعة الهواء خلف الباب ، بأن أدخلت مشعلاً لمعرفة إذا ما كان الفراغ خلف الباب يملؤه غاز متعفن فاسد . بعدها بدأنا في توسيع الثغرة قليلاً ، مما سمح لي بإدخال المشعل ، ثم جانب

من رأسي للتطلع إلى داخل المكان .. من خلفي وقف لورد كارنارفون وليدي ايفيلين والمساعد كاليندر ، وقد غلبهم الانفعال والفضول الشديد ، في انتظار سماع ما أنطق به . في البداية لم أستطع أن أرى شيئاً ، وقد أخذ الهواء الساخن المندفع من الفضاء الداخلي يندفع إلى الخارج ، مما جعل لهب المشعل يرتعش بشدة . لكن ما أن تعودت عيناي على المكان والضوء ، حتى بدأت تظهر أمام ناظري وبالتدريج معالم تفاصيل المكان .. حيوانات غريبة .. تماثيل .. ذهب .. الذهب يلتمع في كل مكان .. وللحظة قصيرة ـ لا بد أنها بدت للآخرين دهراً ـ أخذت أحملق صامتاً من فرط الدهشة ! ..

كان كارنارفون هو أول من تحدث . همس بانفعال «هل ترى شيئاً ؟» .

أجاب كارتر «نعم .. أشياء عجيبة !!» .

إن ما كشف عنه لهب المشعل المرتعش ، لم تره عين بشرية منذ أكثر من ٣٥٠٠ سنة !

لقد كان أجمل وأثمن من كل ما كشف عنه رجال الآثار في حفرياتهم السابقة .

كانت الحجرة حافلة بالأشياء العجيبة .. كؤوس من الألبستر نصف الشفاف على شكل زهرة اللوتس .. كومة غير منتظمة من العربات المقلوبة ، تلتمع بالذهب ومطعمة بالأصداف .. تمثالان أسودان بالحجم الطبيعي للملك يواجهان بعضهما البعض كحارسين للمقبرة ، لكل منهما تنورة ذهبية ، ونعلين ذهبيين ، ويمسك كل منهما صولجاناً وعصا ، وفوق

جبهة كل من التمثالين الكوبرا المقدسة الحامية . بالإضافة إلى ثلاث أرائك مذهبة ، وتوابيت سوداء غريبة ، وتاج مرصع مذهب . ولم يظهر بالحجرة أي أثر لمومياء أو كفن ، وكان من الواضح أن هذه هي الحجرة المؤدية إلى باقي حجرات المقبرة ، والتي قياساً على ما في هذه الحجرة ، لا بد أن تكون حافلة بالكنوز الأثرية الثمينة .

ودون انتظار لمعرفة ما ينتظرهما في الحجرات الأخرى ، أعلن كارتر وكارنارفون أن ما وصلا إليه يعتبر أعظم الكشوف الأثرية إثارة في التاريخ .

كعالم أثري مسؤول ، اتخذ كارتر كافة الإجراءات اللازمة لحراسة المكان . سد الثغرة التي أحدثها في الباب الحجري ، وأوكل إلى مساعده كاليندر أمر حراسة المقبرة ليل نهار بمساعدة عدد من الحراس المسلحين . كما وصى بصناعة باب حديدي ضخم ، تم سبكه وتشكيله في القاهرة ، ثم أرسل بالقطار إلى الأقصر ، ليركب عند مدخل المقبرة . وعندما انتهى من هذا كله ، لم يشعر بالاطمئنان الكامل ، فأمر بردم المدخل ثانية بالحجارة والأتربة .

في ٤ ديسمبر ١٩٢٢ ، سافر لورد كارنارفون مع ليدي إيفيلين إلى انجلترا ، استجابة لبعض الالتزامات ، وأيضاً لإجراء الاستعدادات المناسبة لتقديم هذا الكشف الأثري الهام إلى الرأي العام العالمي . واتفقا على العودة إلى مصر في شهر فبراير من العام التالي .

أما كارتر ، فقد كانت أمامه مهمة عاجلة ، عليه أن ينجزها قبل أن يحل ذلك الموعد .

العَالَم يَرقبُ الحَدَث العَظيم

بدأ الاستعداد لتقديم الكشف الأثري الهام في أفضل إطار . انشغل كارتر بتجميع فريق من أفضل العلماء والأثريين ، ليكونوا أول من يدخل المقبرة ، بينما قام لورد كارنارفون بإطلاق القنبلة أمام رجال الصحافة .

أجرى كارتر اتصالاته لدعوة خبراء الآثار المصرية القديمة . من متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك حضر كبير المصورين الفوتوغرافيين هاري بورتون ، واثنان من رسامي المتحف ، هول وهوسر للقيام برسم اسكتشات ورسوم تفصيلية لكل ما في الحجرة المؤدية إلى حجرة الدفن ، بالإضافة إلى آرثر ماس المشرف على حفريات متحف متروبوليتان .. ومن بين من وصلوا آلان جاردنر الخبير في اللغة الهيروغيلفية ، والذي جاء لمساعدة جيمس هنري برتسيد الصديق القديم لكارتر ، والمختص بفك أسرار رموز الأختام القديمة . وكذلك حضر إلى موقع التنقيب ألفريد لوكاس رئيس القسم الكيميائي بالحكومة المصرية .

بمساعدة هؤلاء الخبراء جرت دراسة دقيقة لأختام الباب الحجري للحجرة المؤدية إلى المقبرة . وقد أثبتت هذه الدراسة أن المقبرة سبق اقتحامها ، وقد اكتفى اللصوص بفتح ثغرة صغيرة في الباب الصخري ، ومن ثم لم يسرقوا سوى بعض الأشياء الصغيرة الحجم من بين كنوز

هذه الحجرة الأولى . كما قال الخبراء أن السرقة جرت بعد الدفن بزمن قصير .

وفي لندن أعلن لورد كارنارفون القصة الكاملة للكشف الأثري لجريدة التايمز الانجليزية ، مما جعل صحف العالم أجمع صغيرها وكبيرها تتدافع إلى موقع التنقيب لمعرفة المزيد من أنباء ذلك الكشف المثير . ونتيجة لشيوع خبر المقبرة ، وخوفاً من تسلل اللصوص والمغامرين ، أقيمت حراسة مشددة ليلاً ونهاراً ، حول موقع الحفريات .

وبدأت اللحظات المثيرة ، وفي هذا يقول لورد كارنارفون «عندما تم فتح الحجرة الأولى المؤدية إلى المقبرة ، كانت أعصابنا قد تمزقت من فرط الإثارة والقلق» .

تم تصوير كل ما هو موجود في تلك الحجرة وهو في مكانه الأصلي . كما انشغل الرسامون في تسجيل كل شيء . واتخذت الاستعدادات لحفظ كل ما وجد بالحجرة وحمايته من التلف ، وساعد في هذا المعمل الكيميائي الصغير الذي أقيم داخل الحجرة .

ومن جميع أنحاء العالم ، تدفقت الخطابات والبرقيات على منطقة الحفر ، تتضمن بعض النصائح في حفظ الآثار ، وطلب تذكارات من موقع الحفر «أكون ممتناً لو تلقيت منكم بعض حبات الرمل من موقع الحفر !» ، ثم التهاني ، وطلبات للمساهمة والمشاركة ، واكتشاف مفاجئ لأقارب لا تعرف عنهم شيئاً ، فقد تسلم كارتر خطاباً من شخص يقول له «أنت بالتأكيد يجب أن تكون ابن العم الذي عاش في كمبرويل عام ١٨٩٣ ، والذي لم نعد نسمع عنه من وقتها ..»

أما الذين كانوا يعملون في الموقع ، وبخاصة الباحثين الأثريين ، فقد كانوا أقل ابتهاجاً ونشوة ، بل أصبحوا أكثر عصبية وتخوفاً . كان مرجع هذا التخوف ، لوحاً فخارياً عادياً ، وجده كارتر في الغرفة المؤدية إلى المدفن ، وطلب تسجيله كما فعل بالنسبة لكل ما كان موجوداً في الحجرة . وبعد ذلك بعدة أيام ، استطاع ألان جاردنر أن يفك الرموز الهيروغليفية المنحوتة على اللوح ، فقرأ في أعلى اللوح هذه العبارة :

«سيذبح الموت بجناحيه ، كل من يبدد سلام مرقد فرعون» !

اختفاء لوح اللعنة

لم يكن قلق كارتر يرجع إلى تخوفه مما جاء باللوح ، كذلك لم يأخذه الباحثون مأخذ الجد ، لكن القلق الحقيقي كان من احتمال وصول خبر هذه اللعنة إلى العمال المصريين اللذين لم يكن من الممكن الاستغناء عنهم .

لذا ، فقد حرص كارتر على إخفاء كل ما يتصل بهذه اللعنة من سجلات اكتشاف المقبرة . بل ان اللوح الفخاري نفسه اختفى من الموقع .. لكن ذكرى ما جاء باللوح لم تختف أبداً من ذاكرة من قرأوا اللعنة . اختفى اللوح ، دون أن تحفظ صورته الفوتوغرافية في سجلات اكتشاف المقبرة ، واعتبر مفقوداً .

إلا أن لعنة الفراعنة عادت لتظهر من جديد ، بشكل آخر ، عندما وصل التنقيب إلى حجرة الدفن الرئيسية . فعلى ظهر أحد التماثيل السحرية وجد النص التالي «انه أنا الذي يصد لصوص المقبرة بلهيب الصحراء . أنا حامي مقبرة توت عنخ آمون» . وما أن تم رفع هذا التمثال ، حتى

اطمأن الأثريون ، ولم يعد يقلقهم احتمال تسرب خبر هذه اللعنات إلى العمال المصريين . لقد وصلوا إلى هدفهم وانتهت حاجتهم إلى هؤلاء العمال .

لماذا سقط الحجر ؟

بعكس الحضارات الشرقية الأخرى ، كانت اللعنات نادرة في مصر القديمة . كان الوحيد صاحب الحق في إطلاق اللعنات هو فرعون الذي يتكلم باسم الآلهة . على سبيل المثال ، وجه تحتمس الأول من فوق عرشه خطابه إلى ابنته حتشبسوت قائلاً «الذين يلعنون ملكهم سيموتون» وفي محاكمات نساء القصر المتآمرات على رمسيس الثالث ، سبقت المحاكمة ما قام به فرعون من لعن المتآمرات ، حتى ترفع عنهن الحصانة الإلهية ، وحتى ينظر إليهن كأعداء للآلهة . وكان من بين التقاليد ، حفر اسم الملعون على جرة فخارية وتحطيمها . كطقس يرمز إلى حرمانه من الحقوق القانونية .

وبالقرب من هرم ميدوم ، اكتشف انجلباخ ، من كبار المفتشين بمصلحة الآثار المصرية ، لوحاً سجلت عليه إحدى اللعنات ، في الحجرة المؤدية إلى حجرة الدفن ، كانت اللعنة تقول «إن روح المتوفي ستخنق عنق لص المقابر ، كما لو كان عنق أوزة» . وإذا كانت اللعنة قد أشارت إلى روح واحدة ، هي روح المتوفي صاحب المقبرة ، إلا أن الذين اكتشفوا المقبرة وجدوا بحجرة الدفن جثمانين ، أحدهما محنط وهو جسد صاحب المقبرة ، والآخر غير محنط وهو بلا ريب يخص أحد لصوص

المقابر الذي تسلل إلى المقبرة ، فسقط عليه حجر ثقيل من سقف الحجرة ، عندما مد يده لينتزع المجوهرات من فوق المومياء ، فحلت عليه اللعنة !

لماذا سقط الحجر ؟ .. وهل سقط بالصدفة أم نتيجة لتدبير محكم ؟

كان المصريون القدماء أهل تدين ، يؤمنون بالمعجزات والأشباح والأرواح . الذين كانوا يعرفون الحقائق حول فيضان النيل ويتنبأون به ، لم يكن ينظر إليهم كعلماء ، بل كأشباه آلهة . وكان الفراعنة يحيطون أنفسهم عادة بالعلماء والحكماء ، فأصبح في مقدورهم أن يعرفوا قبل غيرهم متى سيفيض النيل ، ليروي أرض البلاد ويخصبها . ومن هنا كانت صفة الألوهية التي تسبغ عليهم .

وعندما شاعت المعرفة العلمية بين الناس إلى حد ما ، ضعف بعض الشيء إيمانهم بالآلهة والأشباح . بدأوا يعرفون أشياء عن التقويم ، والرياضيات ، والهندسة والفلك ، وكلما زادت معارفهم ضعف اعتقادهم في الآلهة .

لقد بدأ سقوط الهالات من فوق رؤوس الملوك عند نهاية المملكة القديمة . فكان ينظر إلى زوسر وخوفو وتيتي على اعتبار أنهم من البشر أصحاب القدرات الخارقة الفائقة ، وهكذا أخذت صورة الآلهة تختفي من فوق العروش المذهبة .

نتيجة لهذا ، وبالرغم من أن أبناء الشعب المصري بقوا على اعتقادهم في حياة بعد الموت ، فانهم لم يعودوا يؤمنون بالقدرات الخارقة لموتاهم . وهكذا ، اضطر الكهنة والسحرة إلى الاعتماد على معارفهم التكنولوجية ، للإبقاء على السيطرة ، والاحتفاظ بالتخويف الذي كانت اللعنة تحققه قديماً . لهذا ، فسقوط الحجر من سقف المقبرة على رأس اللص عندما

امتدت يده إلى مجوهرات المومياء لا يستبعد أن يكون نتيجة لنوع من الفخاخ التي نصبها الكهنة ، لحماية المومياء من اللصوص .

ولا شك أن الفراعنة كانوا يبذلون جهوداً لحماية وتأمين مقابرهم بعد موتهم ، حتى يرقدوا في سلام إلى أن تدب الحياة مرة ثانية في أجسادهم . وإذا كانت أسطورة لعنة الفراعنة قد ارتبطت أساساً بتوت عنخ آمون ، مع أنه مات فجأة وهو صغير ، قبل أن يعطي اهتمامه لتأمين مدفنة فإن لهذا ما يفسره . نتيجة للموت المبكر الذي مني به هذا الفرعون ، فإن مهمة دفنه وإعداد مقبرته وحمايتها بالوسائل المختلفة أوكلت بشكل كامل إلى الكهنة والسحرة الذين لا شك قد استخدموا كل معارفهم وخبراتهم في ابتكار أساليب حماية المدفن الخاص بفرعون الذي صادف خاتمة عنيفة لحياته وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره .

ذهب في كل مكان !

إلا أن هذه التفاصيل لم تكن معلومة يوم ١٧ فبراير ١٩٢٣ عندما تأهب هيوارد كارتر ولورد كارنارفون لفتح غرفة الدفن الرئيسية في مقبرة توت عنخ آمون .

لم يكن يدري أحد من العشرين شخصاً المتزاحمين في الممر المؤدي إلى غرفة الدفن ، في الثانية بعد ظهر ذلك اليوم الحار من شهر فبراير ، إذا ما كانوا سيعثرون على مومياء الملك في غرفة الدفن .. كما أن أحداً منهم لم يكن ليعرف أن ١٣ شخصاً من بينهم سيلقون حتفهم بعد وقت قليل من اقتحام المقبرة . يصف كارتر هذا الموقف فيقول :

«تحدد بهذا اليوم ١٧ فبراير ، في الثانية ظهراً تجمع أولئك الذين سيكون من حقهم أن يشهدوا مراسم فتح المقبرة . كان هناك لورد كارنارفون ، وليدي ايفيلين هربرت ، وصاحب السعادة عبد الحليم باشا سليمان وزير الأشغال العامة ، والسيد لاكو المدير العام لمصلحة الآثار ، وسير ويليام جارستين ، وسير شارلز كاست ، والسيد ليثجو أمين القسم المصري القديم بمتحف المتروبوليتان بنيويورك ، والبروفيسير بريستيد ودكتور ألان جاردنر ، والسيد وينلوك ، وصاحب الفخامة ميرفن هربرت ، وصاحب الفخامة ريتشارد بتيل ، والسيد انجلباخ المفتش العام لمصلحة الآثار وممثل المكتب الصحفي بالحكومة المصرية ، بالإضافة إلى أعضاء هيئة التنقيب ، فبلغ عدد المجتمعين عشرين شخصاً» .

قائمة كارتر هذه ، تضمنت ١٣ اسماً فقط ، ومن بين من لم يذكرهم كارتر ، حاكم الإقليم فهمي بك ، وقائد الجيش المصري سير لي ستاك كما تضمنت هيئة التنقيب ثلاثة مساعدين هم أستور ، وبروبير وكاليندر ، بالإضافة إلى ألفريد لوكاس ، وآرثر ميس .

في جو من الترقب الحاد ، صفت المقاعد في الغرفة المؤدية إلى غرفة الدفن . وقد ألقيت الملاءات على التمثالين اللذين يحرسان مدخل المدفن ، وعلقت الأنوار الكهربائية في سقف الحجرة . وقف لورد كارنارفون وآرثر ميس على منصة أعدت خصيصاً بالقرب من باب الحجرة الذي يؤدي إلى داخل المدفن . وكان كارتر يضرب الباب الحجري بالمطرقة والازميل ، ويناول الأحجار والشظايا إلى كارنارفون وميس .

عندما انتهى كارتر من فتح ثغرة في حجم رأس الطفل ، أولج مصباحاً

كهربائياً في ظلام المكان خلف حائط الباب الحجري .. فانعكست الأضواء على الذهب الذي يغطي كل شيء .. ذهب في كل مكان .. ذهب على الحائط ، وفوق كل ما تقع عليه العين . يقول كارتر :

« وعندما جرى رفع المزيد من الأحجار .. انكشفت أسرار الحوائط الذهبية ، نحن عند مدخل حجرة الدفن الأساسية للملك ، والذي بيننا وبين الحجرة ، هو الضريح المبني لتغطية وحماية التابوت ، وسقوط أي حجر قد يحدث تلفاً في الضريح لا يمكن تلافيه ، نظراً لدقة سطح الضريح . لهذا ، ما أن اتسعت الفتحة بالشكل الكافي ، حتى اتخذنا إجراء احتياطياً ، بأن أدخلنا حشية « مرتبة » إلى أسفل الثغرة داخل الحجرة ، وعلقناها في العوارض الخشبية الأفقية التي بأعلى الباب . مرت ساعتان من العمل الشاق ، قبل أن ننتهي من إزاحة ما يسد هذه الفتحة ، أو على الأقل إزاحة ما هو ضروري . وعندما وصلنا إلى أسفل الفتحة ، كان علينا أن نتوقف عن العمل ، لنجمع الأجزاء المتناثرة من حبات خرزية لعقد ، أصابته شظايا من الأحجار الساقطة داخل الحجرة ، فتطاير إلى حيث نقف .. » .

كان كارتر يرتدي حلة سوداء تليق بالمناسبة لكن ما أن حمي وطيس العمل في تكسير الحائط الحجري ، حتى خلع سترته وألقاها بعيداً . وعندما اتسعت الثغرة بالقدر الكافي لدخول إنسان ، هبط كارتر إلى الحجرة ، وتبعه كارنارفون ولاكو . يقول كارتر :

« لقد كنا بلا شك نقف في حجرة الدفن ، فوق رؤوسنا كان السقف الذهبي للضريح الذي يدفن تحته الملوك عادة .. كان الضريح ضخماً

في هيكله ، بحيث أنه ملأ تقريباً فراغ الحجرة «١٧ × ١١ × ٩ أقدام» ، فكان يفصله عن الحوائط ما لا يزيد على قدمين ، بينما ارتفع ليصل تقريباً إلى سقف الحجرة» .

كان السؤال الذي يلح على كارتر ومن معه هو : هل وصل اللصوص إلى الضريح من قبل ؟ ..

في هذا يقول كارتر :

«هنا ، في الناحية الشرقية ، كانت الأبواب الكبرى مغلقة وعليها الأقفال ولكنها لم تكن مختومة . خلف هذه الأبواب سنجد الإجابة عن السؤال الذي يلح علينا . بكل الفضول والترقب رفعنا الأقفال وفتحنا الأبواب ، فوجدنا خلفها ضريحاً آخر ، له أبواب عليها أيضاً الأقفال .. على هذه الأقفال وجدنا الأختام سليمة ! ..»

الآن ، وبلا شك ، يمكننا القول بأن اللصوص لم يصلوا إلى ما هو أبعد من هذا . وذلك يعني أنه خلف هذه الأبواب المختومة ، توجد الأشياء التي لم يقع عليها نظر بشر منذ أن جرى دفن فرعون !

«في تلك اللحظة ، ترددنا في كسر الأختام ، ذلك أننا عندما اقتربنا من الأبواب لنفتحها ، أحسسنا إلى أي مدى نحن نتطفل على المرقد .. شعرنا أننا الآن في حفرة الملك المتوفى ، وعلينا أن نظهر له ضروب الاحترام .. !!

اتخذت الاستعدادات لإخراج مومياء الملك المتوفى ، لكن الأمر بدأ معقداً وصعباً .

وهكذا ، ومرة أخرى ، تم سد مدخل المقبرة بالحجارة والأتربة ،

وعاد لورد كارنارفون إلى القاهرة ، حيث استأجر جناحاً في فندق كونتيننتال طوال مدة الحفريات ، بينما بقي كارتر في الأقصر .

أول ضحايا اللعنة

في أوائل شهر ابريل ، تلقى كارتر ما يفيد أن كارنارفون قد اشتد عليه المرض ، لكنه لم يعط الأمر أهمية كبرى ، ولم يسافر إلى القاهرة إلا عندما تلقى برقية تقول إن لورد كارنارفون قد ساءت حالته ، وأنه يعاني من حمى شديدة .

في ذلك الوقت كان ابن اللورد كارنارفون يتنقل في أنحاء الهند ، وعندما علم بمرض والده ، أبحر بأول باخرة إلى مصر .

ظهرت أعراض المرض ذات صباح ، عندما قال اللورد صاحب الخمس والسبعين سنة على مائدة الافطار «أشعر بجحيم في داخلي !» . بلغت حرارته في ذلك اليوم ٤٠ درجة ، وكان جسده يرتعش بشدة . في اليوم التالي تحسنت حالته ، ثم عادت الحمى من جديد .. ومضى في هذه النوبات لمدة ١٢ يوماً . أرجع الأطباء هذا ، إلى أن لورد كارنارفون جرح نفسه أثناء الحلاقة ، فنكأ جرحاً قديماً بشفرته . لكن هذا لم يفسر استمرار الحمى بذلك الشكل المتردد . يقول ابن لورد كارنارفون «عندما وصلت إلى القاهرة توجهت مباشرة إلى فندق الكونتيننتال ، فوجدت والدي في غيبوبة ، وكان هيوارد كارتر إلى جواره ، كذلك كانت والدتي ليدي الميناء . وفي منتصف الليل ، أو على وجه الدقة في الثانية إلا عشر دقائق ، حضرت الممرضة إلى حجرتي لتخبرني أن والدي قد توفي . وجدت والدتي

معه ، وقد أغلقت عينيه . ما أن وصلت إلى باب الحجرة حتى انطفأت جميع الأنوار ، فأشعلت القناديل ، واقتربت من والدي ، فتناولت يده ، وصليت ..» .

وكتبت أخت لورد كارنارفون ، ليدي بورجسلر في مذكراتها «كان لورد كارنارفون متعباً للغاية وكان يقول لأحد أصدقائه ، لقد سمعت النداء .. وأنا على أتم استعداد» .

وقال ابن كارنارفون «لم يكن هناك أي تفسير لانقطاع التيار الكهربائي في جميع أنحاء القاهرة .. سألنا شركة الكهرباء ، فلم نجد لديهم أي تفسير معقول لانقطاع التيار الكهربائي عن المدينة كلها ، ثم عودته من تلقاء نفسه ..» .

ويشير ابن اللورد كارنارفون إلى واقعة أخرى جرت في مكان بعيد ، فيقول «توفي والدي قبل الساعة الثانية ليلاً بقليل ، حسب توقيت القاهرة . وقد علمت فيما بعد ، ما حدث في نفس الوقت في هايكلير بانجلترا . فقبل الرابعة فجراً بقليل ، بتوقيت لندن ، بدأ كلبنا الذي من فصيلة الوولف والذي أحبه أبي كثيراً ، في نباح حاد ، جالساً على ساقيه الخلفيتين ، ثم سقط ميتاً !» .

حوادث الوفاة تتلاحق

للمرة الأولى ، في أعقاب وفاة لورد كارنارفون بدأ الباحثون ورجال الصحافة يتحدثون بجدية عما سمي لعنة الفراعنة ، وكثر الحديث عن اللوح الفخاري الذي كتبت عليه اللعنة ، والذي عثر عليه في مقبرة توت

عنخ آمون ، ثم اختفى فجأة .

وبعد وفاة لورد كارنارفون ، تعددت حوادث الوفاة لأغلب من كانت لهم صلة بكشف مقبرة توت عنخ آمون ، فانتشر الفزع بين الباقين !

عالم الآثار الأمريكي آرثر ميس ، سقط في اغماءة طويلة بعد وفاة كارنارفون ، لم يستطع الأطباء معرفة سببها ، أو تشخيص حالته الطبية ؛ ثم مات في نفس الفندق الذي مات فيه كارنارفون .

وفاة كارنارفون . دفعت العديد من أصدقائه القدامى إلى السفر لمصر . جورج جاي جولد ، ابن رجل المال الأمريكي المعروف ، حضر إلى القاهرة ، ومنها سافر إلى الأقصر ، حيث تولى كارتر مصاحبته لمشاهدة المقبرة التي اكتشفت . في اليوم التالي أصيب جولد بحمى شديدة ، ومات في مساء نفس اليوم . احتار الأطباء في تشخيص سببه الوفاة ، ثم قالوا بعد ذلك أن سببها هو الإصابة بالطاعون الدملي !

تواصلت حوادث الوفاة بلا انقطاع . بينما كان كارتر يواصل حفرياته في المقبرة ، زار موقع العمل رجل الصناعة البريطاني جويل وول ، ثم عاد إلى انجلترا بالباخرة ، حيث مات متأثراً بحمى شديدة مفاجئة .

أما أخصائي الأشعة أرشيبالد دوجلاس ريد الذي كان أول من فك اللفائف من حول مومياء توت عنخ آمون ليلتقط لها بعض الصور بأشعة أكس ، فقد عانى بعد ذلك من ضعف طارئ وتدهور صحي ، ومات عند عودته إلى انجلترا .

وما أن حل عام ١٩٢٩ ، حتى كان ٢٢ شخصاً من الذين لهم صلة مباشرة أو غير مباشرة بمقبرة توت عنخ آمون قد ماتوا على التوالي . من بينهم

١٣ شخصاً شاركوا في فتح المقبرة . كان من بين المتوفين الأساتذة وينلوك وفوكرات ، والأثري جاري دافيد ، وهارا كنس ، ودوجلاس ديري ، والمساعدين آستور وكاليندر !

زوجة لورد كارنارفون ، ليدي المينا ، توفيت عام ١٩٢٩ نتيجة للدغة حشرة . كما مات في نفس العام سكرتير كارتر ريتشارد بتييل . كان حادث وفاة بتييل محاطاً بأغرب ظروف سلسلة الميتات الغامضة . ذات صباح وجد بتييل في سريره ميتاً نتيجة لأزمة قلبية . عندما سمع والده لورد ويستبوري البالغ من العمر ٨٧ عاماً بوفاة ابنه ، ألقى بنفسه من الطابق السابع بمنزله في لندن . وبينما كانت الجنازة في طريقها إلى المدافن ، دهم الحصان الذي يجر عربة الجثمان غلاماً صغيراً .. فقتله ! ..

«سيذبح الموت بجناحيه ، كل من يبدد سلام مرقد فرعون» .

ماذا تعني هذه اللعنة ؟ هل بإمكان إنسان ما حتى ولو كان إنساناً متألهاً أن يؤثر على حياة البشر الآخرين ؟ هل توصل قدماء المصريين إلى معرفة شيء على التأثير في إيقاع حياة الآخرين ؟ هل توصلوا إلى ذلك بفضل عقائدهم الخفية ، أم اعتماداً على معارف علمية متطورة اندثرت ولم يصل إلينا خبرها ؟

هل الأمر مجرد صدفة ؟ أم أن هناك قانوناً وراء هذه الصدفة ، ينفي عنها صفة العشوائية ، ويكشف عن أشياء جديدة لا ننتبه لها ؟

مَعرِفَة فرعونيّة أم صُدفَة

مات ١٣ شخصاً من بين الذين حضروا فتح مقبرة توت عنخ آمون .. ماتوا ميتات غامضة ، فهل يرجع ذلك إلى إجراء وقائي دفاعي قام به الكهنة لحماية مقابر الفراعنة ، أم أن الأمر مجرد صدفة ؟

« اتفاق الظروف » هو الاسم الذي يطلقه العلماء على ما نسميه الصدفة . وعلماء الباراسيكولوجي الذين يدرسون القدرات الخارقة أو المتفوقة عند الإنسان ، أولوا اهتماماً كبيراً لموضوع الصدفة ، حتى يتمكنوا من رصد وقائع الحس الخارق عند الإنسان لمعرفة إذا ما كان بالإمكان النظر إلى هذه الوقائع ، كظواهر علمية ثابتة ، وليس كحالات متفرقة وقعت بمحض الصدفة .

من أول العلماء الذين اهتموا بالحواس الخارقة والإدراك الخارق عند الإنسان : وحللوها بأسلوب علمي ، كان العالم النفسي المعروف كارل جوستاف يونج . وعالم الحيوان بول كاميرار الذي أمضى عشر سنوات ، يبحث العلاقة بين الصدفة والموت .

رغم اهتمام البشر الكبير بهذا الموضوع على مدى التاريخ ، فما زالت بحوث العلماء حول موضوع الصدفة ونظرية الاحتمالات في أول الطريق . مثل هذا الاهتمام يمكن أن نقتفي أثره عند الفلكيين في مصر القديمة ،

وعند البابليين . لقد اكتشف هؤلاء الإيقاع المتكرر الخاص بالنجوم والأجسام السماوية ، وحاولوا استنباط صلة بين حركات النجوم وحياة البشر على الأرض .

ورغم أن ما توصلوا إليه كان غائماً وغير يقيني إلى حد ما ، إلا أن المصريين القدماء يستحقون أن يسجل لهم فضل ريادتهم في تصنيف الأبراج أو وضع التقاويم والجداول الفلكية ، التي تبين موقع كل جسم سماوي في وقت معين . وهم الذين عرفوا أن الشعرى اليمانية إذا ما ظهرت في السماء صباحاً ، فإن ذلك يعتبر إعلاناً عن فيضان النيل . وهم بذلك قد توصلوا إلى القانون الذي اختفى وراء ما ظنوه صدفة .

ونحن عندما نختبر ما تعارفنا على تسميته بالصدفة ، فسنجد أن هذه الصدفة ستفقد عفويتها ، وتكشف عما خلفها من قوانين وضوابط . ودون الدخول في تفاصيل علمية معقدة ، ومعادلات رياضية قد لا تطيق تفهمها ، تتصل بنظرية الاحتمالات وحدود الصدفة ، نعرض المبادئ البسيطة التالية :

عندما تلقي في الهواء بعملة معدنية ، فهي أما أن تسقط على وجهها وأما على ظهرها ، واحتمال سقوطها على وجهها يكون بنسبة مرة في كل مرتين . فإذا ألقينا العملة مرتين ، فإن هذا سيحدث في نطاق أربعة احتمالات وفقاً للنظام التالي : وجه ثم وجه ، أو وجه ثم ظهر ، أو ظهر ثم وجه ، أو ظهر ثم ظهر . وليس هناك ما هو خارج هذه الاحتمالات . أما إذا رمينا العملة ثلاث رميات حصلنا على ثمانية احتمالات .

من الناحية النظرية يمكن أن تسقط العملة على وجهها لعشر رميات

متتالية . إلا أن هذا الاحتمال يكون ضعيفاً للغاية . وبالطبع ، تصبح العملية أكثر تعقيداً إذا كنا أمام اكثر من احتمالين ، كما يحدث مثلاً عند إلقاء مكعب «كزهر الطاولة» ، حيث تكون هناك في كل رمية ستة احتمالات . المهم في كل هذا ، أنه إذا تكرر احتمال من الاحتمالات عدة مرات ، أكثر مما تسمح به الصدفة المحضة ، فإن العلم يبحث في هذه الظاهرة للبحث عن قانون خاص يختفي خلفها .

من وقائع الصدفة المركبة ، ما ذكره وارين ويفر ، عما حدث في أول مارس ١٩٥٠ في بياتريس بولاية نبراسكا . كان قد تحددت الساعة السابعة والثلث مساء لبدء تدريبات الكورال في كنيسة القرية . وبفضل صدفة غريبة غير عادية ، عندما بلغت الساعة السابعة وخمس وعشرين لم يكن أحد من المشتركين في مجموعة الكورال ، والبالغ عددهم ١٥ شخصاً قد وصل إلى الكنيسة !

راعي الكنيسة ورئيس فريق الكورال لم يصل في موعده لأنه كان ينتظر انتهاء زوجته من كي ثوب ابنتهما الكبيرة التي كانت تشارك في الغناء مع الكورال . سيدتان ، فشلت كل منهما على حدة في تشغيل السيارة ، التي كانت ستقل كل منهما إلى الكنيسة . إحدى الآنسات لم تكن قد أكملت واجباتها المدرسية . إثنان من أعضاء الكورال انهمكا في سماع تمثيلية إذاعية مثيرة ، فلم ينتبها لمرور الوقت . كان على إحدى الأمهات أن تقوم بمحاولتين متتاليتين لإيقاظ ابنتها المشتركة في الغناء .

كل هذه الأسباب البسيطة تشرح علة عدم تواجد أعضاء الكورال في موعدهم المحدد بالكنيسة .

لكن هذه المبررات ظهرت فجأة على ضوء جديد تماماً ، عندما تسبب انفجار أنابيب الغاز في تحطيم كنيسة بياتريس وتخريبها تماماً ، وعندما حدث ذلك في تمام الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة تماماً ! .

هنا تنشأ التساؤلات .. هل يمكن أن يرجـع تخلـف جميـع أعضاء الكورال البالغ عددهم ١٥ شخصاً إلى الرعاية الإلهيه ؟ هل شعروا بإحساس خاص ؟ أم أن الأمر لم يخرج عن كونه مجرد مصادفة حفظت على هؤلاء جميعاً حياتهم ؟ ! ..

قام ويفر بإجراء دراسة إحصائية رقمية لاحتمالات غياب أعضاء الكورال جميعاً في ذلك المساء ، بعد أن أدخل في الاعتبار معدلات تخلفهم في التدريبات السابقة ، فوجد أن حدوث هذا بالصدفة ، يحدث مرة كل مليون مرة . مما يستبعد أن يكون ذلك قد حدث بمحض الصدفة .

هل لهذه الواقعة علاقة بالإيقاع الحيوي لدى مجموعة أعضاء الكورال ؟ هل كانوا في ذلك اليوم في قمة منحنى الحيوية الجسدية والعاطفية والعقلية ، مما دفعهم لاشعورياً إلى التخلف عن حضور التدريبات في الموعد المحدد ؟

الإيقاع الحيوي

في الثاني من أكتوبر سنة ١٩٧٠ ، ماتت في بافاريا ممثلة ألمانية شهيرة ، ومات معها أيضاً زوجها الطبيب ، في حادث سيارة . بعد الحادث ، اهتم بعض الباحثين بدراسة الإيقاع الحيوي عند الزوجين يوم الوفاة ، فاكتشفوا أن الزوج وزوجته كانا في يوم ١٢ أكتوبر بالذات عند قاع منحنى الحيوية البدنية . فمال خبراء الإيقاع الحيوي «البيوريزم» إلى إرجاع الوفاة إلى

ذلك السبب .

ونظرية الإيقاع الحيوي هذه أعلنها طبيب ألماني اسمه فيلهلم فليس . وتقوم النظرية على الفروض التالية . عند مولد الإنسان تبدأ إيقاعات حياته : ايقاع لحياته الجسمانية ، وإيقاع آخر لحياته العاطفية والنفسية ، وإيقاع ثالث لحياته العقلية أو قدراته الذهنية . هذه الإيقاعات الثلاثة يكون لكل منها أوجه الأعلى وحضيضه الأسفل ، مما يجعل قدرات الشخص وأداءه متفاوتاً من وقت لآخر .

ومما يعقد أمر حساب هذه الإيقاعات ، أن كل إيقاع منها له دورته الزمنية الخاصة التي تختلف عن دورة الإيقاعين الآخرين .

فالدورة الجسدية مداها ٢٣ يوماً ، والدورة العاطفية مداها ٢٨ يوماً «وهو نفس مدى الدورة الشهرية عند المرأة أما الدورة العقلية فمداها ٣٣ يوماً .

وفقاً لهذه النظرية يكون الإنسان في قمة قدرته الجسدية يوماً من كل ٢٣ يوماً ، وفي أحسن أحواله العاطفية يوماً من كل ٢٨ يوماً ، وفي أعلى إيقاعه العقلي يوماً كل ٣٣ يوماً . وكل إيقاع من هذه الإيقاعات يتضمن يوماً تكون القدرة عنده في قمتها ، ويوماً آخراً تكون في حضيضها . الأيام التي على طرفي يوم القمة تعتبر جيدة ، والأيام التي على طرفي الحضيض تعتبر سيئة .

في حادث موت الممثلة وزوجها الطبيب ، قاموا بحساب دورة كل منهما وفقاً لتاريخ الميلاد ، ثم اكتشفوا من دراسة منحنى الإيقاع الحيوي لكل منهما أن يوم ١٢ أكتوبر ١٩٧٠ جاء أكثر الأيام هبوطاً لكليهما ! . هل

هي صدفة ؟ ..

وهبوط القوى البشرية ، يعتبر السبب الرئيسي لعدد كبير من حوادث تحطم الطائرات ، الأمر الذي تبين حدوثه عند انخفاض منحنى دورة الحياة عند الطيارين . في بدايات عام ١٩٧٣ تحطم عدد قياسي من طائرات ستارفيتر « ١٥٦ طائرة » . وعند دراسة الموضوع على ضوء الإيقاع الحيوي للطيارين ، وفقاً لتواريخ ميلادهم ، وجد أن عدداً كبيراً من الطيارين كانوا عند تحطم طائراتهم في أسفل منحنى نشاطهم الحيوي .

أسطول التاكسي الياباني

ويولي اليابانيون اهتماماً خاصاً بنظرية الإيقاع الحيوي هذه . على سبيل المثال ، تاتايتو كوكاسي ، صاحب أكبر أسطول لسيارات التاكسي في اليابان يفرض على ٣ آلاف سائق يعملون لحسابه أن يكتبوا كل يوم ، قبل بدء العمل ، حالة ايقاعهم الحيوي . كما أن قائدي الدراجات البخارية التابعين لشركة تلغراف يوكوهاما ، والبالغ عددهم ٥٠ شخصاً ، يربطون شرائط حمراء أو صفراء في ذراعي قيادة الدراجة البخارية وفقاً للنظام التالي . الشريط الأحمر يقول للآخرين « احترسوا .. السائق اليوم في قاع المنحنى الحيوي » ، بينما الشريط الأصفر يقول « انتبهوا .. السائق اليوم في الأيام التي قبل أو بعد مرحلة الهبوط القصوى » .

وقد استفادت سويسرا من خبرة اليابان في هذا المجال ، واستطاعت بذلك أن تخفض نسبة الحوادث ٤٠ في المائة . كما أن جاك جونتر مدرب فرق الجمباز السويسري ، ينظم تواريخ اللقاءات العالمية لأبطاله ، وفقاً

لأعلى أيام ايقاع حياتهم الجسدي .

هذه فكرة سريعة عن نظرية الإيقاع الحيوي «البيوريزم» . وهي في حد ذاتها تمثل محاولة من جانب الباحثين لاستنباط نظرية ما ، من تسلسل الوقائع ، وعدم النظر إلى الأحداث باعتبارها وليدة محض الصدفة .

وإذا لم تكن أقدار الناس هي نتاج الصدفة المجردة ، فإن هذه الوقائع تصبح أكثر اقلاقاً .. عندما تتصل أقدار بشر لا يوجد بينهم ما يربطهم اتصالاً غريباً . أم هل هناك ارتباط طبيعي أو فوق طبيعي بين الناس الذين لهم نفس الاهتمام أو نفس المشاعر أو المشاكل المشتركة ؟ هل يمكن أن يكون ما نسميه لعنة الفراعنة ، ليس أكثر من رابطة بين أقدار مجموعة من البشر لهم نفس المشاعر ونفس الاهتمام ؟! .

أرانب الغواصة السوفييتية

البليثيسموجراف .. جهاز يكشف عن نشاط المخ . ويقوم عمله أساساً على قياس ضغط الدم في المخ ، وحجم الأوعية الدموية به . فالمعروف أن ضغط الدم وانتفاخ الأوعية الدموية في المخ ، هما مؤشرا نشاطه في لحظات التفكير العميق . وقد أجرى الباحث التشيكي فيجار تجربة على شخصين يتفقان في تركيبهما العاطفي . وضع كل منهما في حجرة منفصلة ، وثبت جهازه إلى رأس كل منهما ، ثم طلب من أحدهما أن يحل مسألة رياضية معقدة نسبياً ولم يكن الآخر يعلم شيئاً عن هذا . وبدأ عمل الجهازين في نفس الوقت لقياس نشاط المخ عند الشخصين .

والأمر الغريب الذي لم يجد له العلم تفسيراً حتى الآن ، هو أن ما سجله

الجهازان عن نشاط المخ بالنسبة للشخصين ، جاء متطابقاً رغم عدم معرفة الناس بانشغال الأول بحل المشكلة الرياضية .

كذلك قام العلماء السوفييت بتجربة علمية غريبة . وضعوا أرانب وليدة داخل غواصة ، وعندما مضت الغواصة إلى أعماق المحيط ، حيث تنقطع كل صلة بينها وبين سطح الأرض بدأوا في ذبح الأرانب الصغيرة .. وكلما حدث ذلك كان قياس مخ الأرنبة الأم في المعمل على بعد مئات الأميال ، يسجل ذبذبة عنيفة ، تكشف عن انفعال شديد حاد . كيف وصلت الأخبار إلى الأم ؟ بالاشعاع أم بالموجات الكهرومغناطيسية ؟ أم عبر موجات خاصة لم يتعرف عليها العلم بعد ؟ ! .

الأرجح أن انتقال هذا الإحساس المتفوق غير العادي ، يتم عبر وسط خاص ، وعلى موجات غير معروفة . فلقد أجرى العالم الباراسيكلوجي ليونيد فاسيليوف عدة تجارب على الاتصال التخاطري الذي يتم بين شخصيتين وأثبت أن الاتصال يتم حتى مع وجود كل العوازل التي تصد الموجات الكهرومغناطيسية وأشعة جاما والموجات الشديدة القصر .

ماذا تعني هذه الحقائق ؟ .. تعني أن الإنسان تصله رسائل غير منظورة ، عبر وسيلة انتقال غير معروفة ، تؤثر على حالته الصحية والعقلية والعاطفية ، بما يجعله معرضاً ، أكثر من أي وقت آخر ، لمخاطر لم يكن ليتعرض لها في حالته الطبيعية .

وفاة كينيدي

يتساءل الباحث فيليب فاندنبرج قائلاً لماذا ، في يوم محدد ، وفي ساعة

محددة ، يبدي شخص ما قدراً من الاستخفاف والإهمال يجعله يتدحرج على الدرج ، ، فينكسر عنقه ؟ لماذا يعاني الإنسان في يوم معين وموعد محدد من أزمة قلبية قاتلة ؟ .. ولماذا ينجو شخص بالذات في حادث تحطم طائرة ، يموت كل ركابها ؟ هل تكون فئة من الناس أكثر شعوراً باقتراب الموت ؟» .

ثم يحكي عن كارثة مشهورة في تاريخ الطيران المدني الألماني ، جرت في ديسمبر ١٩٧٢ ، مات فيها ١٥٦ شخصاً . فيقول «كانت السيدة ، زوجة صاحب شركة أتوبيس ، ضمن ركاب الطائرة مع زوجها ، وما أن انتقلت الطائرة إلى أول ممر للاقلاع تأهبا للطيران ، حتى أصيبت السيدة بنوبة عصبية حادة ، وأخذت تصرخ مطالبة بالنزول من الطائرة .. وهكذا سمح لها هي وزوجها بالنزول عند بداية ممر الاقلاع .. وما أن ارتفعت الطائرة عن الأرض وارتفعت قليلاً في السماء ، حتى سقطت متحطمة ومات من كان بها .. كيف حدث هذا ؟ وهل كانت الزوجة ترى شبح الموت المقبل ؟»

هذا الإحساس السابق بالأحداث ، من الظواهر المتكررة في حياتنا . في عام ١٩٥٢ ، تنبأت السيدة جين ديكسون ، صاحبة القدرات العقلية الخارقة ، بأن رجلاً بعينين زرقاوين سينتخب رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٠ . وفي يوم الجمعة ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ ، كانت تتناول طعام الغداء مع صديقتين بأحد مطاعم واشنطن . سألتها إحدى الصديقتين «ماذا بك ؟» عندما وجدت أنها لم تقترب من الطعام . فقالت السيدة ديكسون «إني مضطربة تماماً .. سيحدث اليوم شيء فظيع للرئيس ..» . بعد هذا بدقائق أذاعت محطات الإذاعة والتليفزيون نبأ اغتيال جون

كينيدي . هذا بالإضافة إلى تنبؤاتها بنهاية السكرتير العام للأمم المتحدة داج همرشلد ، وانتحار مارلين مونرو ، ووفاة المهاتما غاندي .

من هذا يخرج فيليب فاندنبرج باستخلاصه الذي يقول «يبدو أن الموت مسألة صدفة ، وأنه في بعض الظروف الخاصة يمكن التنبؤ به . وهذا ما يشعر به بعض أصحاب القدرات الخاصة من البشر» .

من الصين إلى ألمانيا

لقد اعتقد الصينيون قديماً بأن كل إنسان عبارة عن مشروع لتوليد الطاقة ، تلك الطاقة التي يطلقون عليها تعبير . «قوة الحياة» ، وأن هذه الطاقة الحيوية تمتد في الفضاء . وهكذا تنشأ بين البشر صلات عن بعد وعبر الفضاء . ونحن نجد تنويعات لهذه النظرية أو العقيدة في جميع الحضارات القديمة . الهندوس يطلقون على هذه الطاقه «برانا» ، وأن هذه الطاقة تندعم عند استنشاق الأكسيجين ، ولهذا يلعب التنفس دوراً كبيراً في اليوجا .

وفي القرن السادس عشر ، ظهر أول تطبيق حديث للنظرية القديمة ، فقال المفكرون أن هذه الطاقة يمكن نقلها من شخص إلى آخر . وقد تحدث عن هذه القوة في القرن السابع عشر الطبيب والكيميائي البلجيكي يان باتيستا فان هلمونت ، الذي اكتشف حامض الكلوريك ، وقال إن هذه الطاقة الحيوية عند شخص ما ، يمكن أن تؤثر على إرادة شخص آخر في مكان بعيد .

أما فرانز أنطون ميسمير ، الطبيب الألماني الذي عاش حتى بدايات

القرن التاسع عشر ، فقد انشغل بدراسة المظهر المادي لما سماه «المغناطيسية الحيوانية» .. ومن هذا انطلق إلى اقتراح علاج مغناطيسي يعيد إلى الطاقة البشرية توازنها . فالمرض عنده خلل طارئ على دورة القوى المغناطيسية المتوافقة في الكيان الحيوي للإنسان . وأن علاج المرض يتطلب اعادة التوافق ، عن طريق تعريض المريض لإشعاع مجال مغناطيسي .

وفي منتصف القرن التاسع عشر ، أجرى الكيميائي الألماني كارل فون رايشنبا في بعض البحوث على «الهالة» البشرية ، أو مجال الاشعاع البشري . وقال إن الجسم البشري يطلق هذه الهالة في صورة مادية .

مثل هذه النظريات والدراسات ، التي تصدى لها علماء كبار ، كان من الممكن أن تزدهر وتتراكم ، لولا عمليات التشويه وإساءة الاستغلال التي تتعرض لها حصيلة هذه البحوث والممارسات الغامضة . مما أساء إلى هذه البحوث ، وجعل الحركة العلمية تنفر منها .

علوم الفراعنة السرية

نعود فنتساءل ، هل ترتبط حوادث الموت المتكررة بمكان خاص ؟

هناك نظرية شائعة لم تحظ بعد بإثبات علمي ، تقول بوجود مناطق مؤثرة على سطح الأرض ، تتميز عن غيرها ، بدرجة تأثير إشعاع الأرض .

ومما ساعد على شيوع هذه النظرية ، تعدد الأفراد الذين لهم قدرة خاصة على اكتشاف الماء تحت الأرض ، أو اكتشاف عروق المعادن في جوفها ، ويسمى «الدوسر» . فمنذ قديم الزمن وحتى يومنا هذا ، يوجد في كل مجتمع أفراد لهم القدرة على تحديد مجاري المياه الجوفية الأقرب إلى سطح

الأرض ، وهم يميزونها عن غيرها من الأرض ، بالسير مع امساك غصن من شجرة يتفرع أمامهم إلى غصنين ، وكلما اقتربوا من مستودع مياه مال الغصن إلى أسفل .

كذلك هناك النظرية التي تقول إن كل إنسان له نقاط خاصة ومواقع معينة على سطح الأرض يشعر فيها بالراحة والتوافق مع الكون ، وأن عليه أن يبحث عنها باحساسه المرهف . ويستشهدون على ذلك بما تفعله الكلاب ، التي تدوز وتدور في المكان حتى تصل إلى بقعة معينة تتخذها مكاناً لنومها ولا تغيرها . بل هناك من يقول إن تغيير اتجاه السرير في الحجرة يمكن أن يشفي الإنسان من بعض الأمراض التي يشعر بها .

ليس فقط الموقع الخاص على سطح الأرض ، ولكن أيضاً شكل البناء أو الهيكل الذي يستقر الإنسان داخله . وقد رأينا كيف أن الشكل الهرمي المصنوع بنفس مواصفات هرم خوفو ، يحدث عند بؤرة الهرم طاقة مكثفة قوية يكون لها تأثيرها الفعال على الإنسان .

وهذا يقودنا إلى التساؤل مرة ثانية : هل عرف قدماء المصريين ، أو على الأقل أصحاب العلم والحكمة من بينهم ، عن أمور الطاقة وأشكالها ، ما لم يصل إليه علماء اليوم ؟ . وبعكس ما يحدث في الهرم ، هل تؤدي الأشكال الخاصة لبعض الإنشاءات المعمارية والهندسية إلى توليد قوى خاصة ، يمكن أن تنهي حياة البشر الذين يتعرضون لهذه القوى ؟ .. ثم هل لهذا كله صلة بما نسميه لعنة الفراعنة ؟ ..

لقد مات ١٣ شخصاً من بين الذين حضروا فتح مقبرة توت عنخ آمون ، ميتات غامضة . هل يرجع هذا إلى إجراء وقائي ، وضعه قدماء العلماء

لحماية مومياء فرعون . لقد وصل قدماء المصريين إلى معارف علمية مبهرة ، كانت وقفاً على الكهنة والحكماء . ونتيجة للعقيدة التي كانت سائدة والتي تقول بعودة الحياة إلى الجسد مرة ثانية إذا ما أحسن تجهيزه لاستقبال الحياة الجديدة ، لم يكن غريباً أن يركز كهنة مصر القديمة كل جهودهم ، وأقصى علمهم ، لحماية المومياء . فهل عرف هؤلاء الكهنة من المعارف العلمية المتفوقة ، ما ضاع وتبدد بعدهم ، فلم يصل إلينا .

إذا كانت شواهد ما جرى عند فتح مقبرة توت عنخ آمون ، يقتضي الرجوع إلى المستندات القديمة والمراجع التاريخية ، فإن ما جرى في العاشر من مارس ١٩٧١ في مناطق الحفريات للبحث عن الآثار المصرية القديمة لا يقتضي هذا التقصي التاريخي .

سِلسِلَة مِنَ الضَحَايَا

حدث ذلك يوم الأربعاء ١٠ مارس عام ١٩٧١ ، في منطقة الحفريات الواسعة بسقارة ، على بعد ٣٠ كيلومتراً جنوب القاهرة . كان العمال يتأهبون لإنهاء عملهم اليومي في الموقع ، في الثانية بعد الظهر . راح العمال يلقون بالأوعية التي ينقلون بها التراب والحجارة من داخل الحفريات إلى خارجها ، يلقونها على الأرض في إيقاع متتابع . كان التراب يكسو أجساد العمال بلون رمادي قاتم ، بعد عملهم الدائب الذي بدأ في السابعة صباحاً ، لنقل الأتربة من حفرة عمقها عشرة أمتار .

وكانت الحياة قد دبت في منطقة سقارة ابتداء من عام ١٩٣٥ ، عندما تدفقت جموع الأثريين المهووسين إلى المنطقة . ومدافن سقارة تعتبر مدينة الموتى بالنسبة للعاصمة ممفيس ، وتمتد على طول سبعة كيلومترات ، بعرض من نصف كيلومتر إلى كيلومتر ونصف ، يتوجها هرم الملك زوسر الذي يرجع تاريخه إلى خمسة آلاف سنة ، والذي يعتبر أقدم مبنى ما زال قائماً في العالم .

في ذلك اليوم من عام ١٩٧١ ، كان يقف عند حافة الحفرة أستاذ المصريات الإنجليزي والتر بريان ايمري ، الذي كان يرأس بعثة التنقيب في سقارة ، وكان إيمري يحمل في يده تمثالاً صغيراً لإله الموت أوزيريس لا

يزيد طوله على ٢٠ سم . وكان العالم الإنجليزي لا يمل استعراض التمثال من جميع زواياه . أخيراً تحرك إيمري إلى قرية سقارة بصحبة مساعده المصري .

كان مقر بعثة التنقيب منزلاً صغيراً في قرية سقارة ، يستخدم كمخزن ، به مكتب وحمام . إلا أن أحداً من الأثريين لم يكن يستخدمه للإقامة . وعندما وصل إيمري ومساعده علي الخولي إلى المكتب ، ارتمى علي الخولي على إحدى الأرائك مجهداً من أثر الحرارة العالية التي تعرض لها بينما مضى إيمري إلى الحمام .

يحكي فيليب فاندنبرج ما سمعه من المساعد المصري لايمري ، علي الخولي ، فينقل على لسانه :

« كنت أجلس على الأريكة ، عندما سمعت أنيناً صادراً من الحمام . نظرت من خلال فتحة الباب ، الذي لم يكن مغلقاً بالكامل فرأيت إيمري منكفئاً على الحوض . سألته : هل أنت مريض ؟! لكنني لم أحظ بإجابة ، كان جامداً في مكانه ، وكأنه قد فقد القدرة على الحركة . جذبته من كتفيه ، وسحبته إلى الأريكة ، ورحت أعدو باحثاً عن تليفون .. » .

أسرعت عربة إسعاف تحمل إيمري إلى المستشفى البريطاني بالقاهرة . وكان تشخيص الأطباء للحالة « شلل في الجانب الأيمن من الجسم » . وكان إيمري قد فقد النطق . زوجته التي كانت ترافقه في جولاته الأثرية ، حرصت على البقاء إلى جوار سريره طوال الليل . وفي اليوم التالي ، الخميس ١١ مارس ١٩٧١ ، مات والتر بريان إيمري .

مقبرة الوزير راموزا

كان إيمري يعرف الكثير عن لعنة الفراعنة ، لكنه كان يتجنب الحديث عنها ، ويتجاهلها . وعندما كان الصحفيون يسألونه عن لعنة الفراعنة كان يرفض التعليق . عن هذا قال علي الخولي « كان يتحدث عن كل شيء .. لكنه لم يتحدث أبداً عن لعنة الفراعنة » .

ولد إيمري في ليفربول ، ودرس الهندسة البحرية ، وعمل في بناء سفينتين حربيتين ، لكنه كان يفكر في مستقبل آخر لحياته .

في عام ١٩٢١ ، عاد إلى الدراسة الجامعية من جديد ليدرس علم المصريات على يد الأستاذ توماس بيت . كانت الحضارة المصرية القديمة تستولي على عقله منذ أيام دراسته الثانوية . وبعد فترة من الإنكباب على دراسة النصوص المصرية القديمة ، لم يستهوه العمل النظري . وقطع دراسته الجامعية ليشارك في بعثة تنقيب بمنطقة الأقصر . وما أن حل عام ١٩٢٦ حتى كان قد أشرف على حفر أكثر من عشر مقابر مصرية قديمة ، من أهمها مقبرة الوزير راموزا ذات القيمة الأثرية الكبيرة ، والتي يرجع تاريخها إلى الأسرة الثامنة عشرة .

بعد هذا بثلاثة أعوام ، أي في عام ١٩٢٩ ، نقل إيمري نشاطه إلى النوبة ، لإنقاذ الآثار الفرعونية من الغرق ، بعد أن ارتفع منسوب المياه ، في أعقاب إقامة خزان أسوان .

في عام ١٩٣٥ ، تم تعيين إيمري رئيساً لحفريات سقارة ، وكانت مهمته الأولى هي الكشف عن المقبرة الضخمة التي يرجع تاريخها إلى الأسرة الأولى . وقد كرس إيمري السنوات العشرين التالية لهذا الهدف ، باستثناء

سنوات الحرب العالمية الثانية ، التي عمل فيها لحساب القوات البريطانية .
بعد الحرب ، لم تكن هناك ميزانيات كافية لمواصلة الحفريات ، ثم حلت أزمة السويس ، ولما كان إيمري قد تعود على الحياة في مصر ، فقد قبل منصباً دبلوماسياً في السفارة البريطانية بمصر . وبعدها تم اختياره أستاذاً للمصريات في جامعة لندن . وعندما استؤنفت حفريات سقارة ، كان يوزع وقته بين محاضراته في لندن ، وحفرياته في مصر .

أمحوتب .. الطبيب الأول

في الخامس من أكتوبر عام ١٩٦٤ ، بدأ إيمري ما اعتبره أهم أعمال حياته ، البحث عن مقبرة أمحوتب . وكان إيمري يبدي دائماً إعجاباً زائداً بشخصية أمحوتب . ويقول عنه «أول طبيب يظهر بشكل متميز وسط ضباب التاريخ القديم» . وقد عاش أمحوتب في زمان الفراعنة الأول ، ونتيجة لغزارة معارفه العلمية ، كانوا ينظرون إليه باعتباره إله الشفاء . لكنه كان في نفس الوقت مهندساً معمارياً ، ومستشاراً للملك زوسر ، ووزيراً له و«مديراً للأشغال العامة لملك الوجه القبلي والبحري» وقد أشرف أمحوتب على بناء هرم زوسر وينسب إليه أيضاً اختراع التقويم والكتابة . باختصار ، كان عبقرية شاملة فريدة .
ونظراً لأن قبر أمحوتب لم يكن قد اكتشف بعد ، كان من المرجح أن أيدي العابثين واللصوص لم تصل إليه . وكان الاعتقاد السائد بين الأثريين أن المهندس الأعظم أمحوتب لا بد أن يكون قد بنى لنفسه ، في حياته ، قبراً قد يختلف عن قبر فرعونه زوسر ، ولكن لا يقل عنه روعة . كان

إيمري يعتقد أن الوصول إلى قبر أمحوتب ، سيكون اكتشافاً هاماً بالنسبة لتاريخ المملكة القديمة ، وأن مثل هذا الاكتشاف ستكـون لـه أهميته التاريخية ، التي لا تقل عن أهمية اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون بالنسبة للإمبراطورية الحديثة .

لكن ... أين تقع مقبرة أمحوتب في هذه الصحراء الواسعة ؟!

محاولات التنقيب الأولى ، أوضحت أن الوادي بأكمله يزخـر بالإنشاءات التي تعود إلى عهد الأسرات القديمة . والذي ساعد على حفظ معظم بنايات ذلك العصر ، والتي لم تكن تزيد في ارتفاعها على ثلاثة أمتار ، نتيجة لأنها غمرت بالأنقاض ، في محاولة لتسوية الأرض ، بهدف تمهيدها لإقامة مبان جديدة في عصور تالية .

تسلطت تلك الفكرة على عقل إيمري ؛ فواصل التنقيب في هذه المنطقة بشكل محموم . في العاشر من ديسمبر عام ١٩٦٤ ، ضربت معاوله ، حافة مقبرة الأسرة الثالثة . وعندما واصل الحفر إلى عمق عشرة أمتار ، تشعبت أمامه السبل تحت الأرض ، فيما يشبه المتاهة ، ممرات ، وبوابات من الطوب ، ثم عدد لا يحصى من تماثيل ابيس . كان من الواضح أن هذا الموقع قد تعاقبت عليه العديد من الأجيال . وشعر إيمري أنه يسير في الطريق السليم ، عندما عثر على تمثال من عصر بطليموس . ووجد عند قاعدة التمثال ، تسجيلاً لعدد من الأعياد التي كانت تجري للاحتفال بإله الشفاء . وفي النص المكتوب على ذلك التمثال ، جاء في وصف أمحوتب أنه «الذي يرقد في ويهان ، ذلك الكهف القريب إلى قلبه» .

واستنتج إيمري أن هذه المتاهة الممتدة تحت الأرض ، والتي ينقب

فيها ، هي نفسها ذلك الكهف الذي تتحدث عنه كلمات التمثال . أما متى يصل إلى مقبرة أمحوتب ؟ لم يكن يعلم .. قد يكون هذا بعد أيام وقد يكون بعد سنوات .

عندما اتصل الحفر والتنقيب ، كان الأثريون يربطون حول أوساطهم ، حتى يتعرفوا على طريقهم إلى سطح الأرض ، عندما يمضون في المتاهة المتشابكة الممرات . وقاموا بعمل رسوم تخطيطية لجغرافية هذه المتاهة ، وكلما وصلوا إلى نهاية ممر لا يؤدي إلى شيء ، سدوه بالأتربة ، وانصرفوا إلى غيره . وبعد شهور من العمل الشاق تحت الأرض ، اضطر إيمري إلى الاعتراف بأن هذه الممرات لا تؤدي إلى مقبرة أمحوتب .

وبالرغم من أن والتر بريان إيمري لم يفقد أمله في الوصول إلى مقبرة أمحوتب ، ولم يفتر حماسه في التنقيب عنها ، فقد حرم من ذلك النصر عندما حلت نهايته الغامضة .

الانتحار وفقد العقل

وقد حاول الباحث فيليب فاندنبرج أن يصل إلى حل للغز لعنة الفراعنة سالكاً سبيلاً آخر . أخذ يدرس حياة كبار علماء الآثار الذين عملوا في مجال الآثار المصرية القديمة ، باحثاً عن العوامل التي قد يشتركون فيها . لكنه لم يجد في حياتهم من الأمور المشتركة ، سوى حماسهم المحموم لعملهم الذي اختاروه . ومع هذا فقد توصل من خلال البحث إلى بعض الوقائع الملفتة .

لم يستطع فاندنبرج أن يضع علماء الآثار المصرية تحت تصنيف واحد

فالاختلاف بينهم لم يكن مقصوراً على تعدد نظرياتهم الأثرية ، بل تجاوز هذا إلى طبائعهم وشخصياتهم المتباينة . وقد قال فاندنبرج لنفسه «إذا كانت لعنة الفراعنة ظاهرة ليست مقصورة على مقبرة توت عنخ آمون فلا بد أن هناك العديد من علماء الآثار المصرية القديمة الذين لحقت بهم اللعنة ، وصادفوا ميتات غامضة ، قبل اقتحام المرقد الأخير للملك توت عنخ آمون» .

وكانت أول المصاعب التي واجهته ، هو ما اكتشفه من أن المكتبات والوثائق والمراجع . وان كانت تتضمن تفاصيل وصف الكشوف الأثرية ، والنظريات التي قامت عليها ، إلا أنه لا يوجد بها سوى القليل النادر عن حياة هؤلاء الأثريين الذين توصلوا إلى هذه الكشوف والنظريات . لكنه مع هذا ، توصل إلى أن لعنة الفراعنة قد عملت عملها قبل اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون بقرن أو بقرن ونصف من الزمان .

فمن خلال هذا البحث في تاريخ الكشف الأثري بمصر ، اكتشف فاندنبرج أن العديد من الأثريين الممتازين كان مصيرهم الانتحار ، وانه حتى أولئك الذين نجوا من ذلك المصير ، فانهم كانوا يعودون من مصر وكأنهم فقدوا عقولهم . والأمثلة عديدة .

تصرفات شاذة وغريبة

على سبيل المثال ، ما نقرأه في السيرة الشخصية التي كتبها الأستاذ أدولف ايرمان ، مدير المتحف المصري القديم ببرلين ، عن حياة هنريك بروجش ، أحد أفضل علماء الآثار المصرية في برلين ، والذي كان قادراً على قراءة

النصوص الديموطيقية ، وهو بعد في السادسة عشرة من عمره
نشأ بروجش في بيئة برلينية خالصة ، فقد ولد عام ١٨٢٧ في معسكرات كوبفرجرابن حيث عمل والده ككبير للجراحين ، رغم أن بروجش حتى بعد أن أصبح عالماً مرموقاً ، كان يقول للناس انه ابن لأحد الأمراء ! .
ظهر الخلل الحقيقي في تصرفات بروجش بعد أن أمضى عدة سنوات في مصر . وقد قال جاستون ماسبيرو ، مدير مصلحة الآثار المصرية ، أن بروجش كان يخترع الوقائع التي تؤيد بحوثه النظرية ، كما اكتشف ايرمان الكثير من التناقضات الشديدة في كتاباته عن مسألة واحدة .
ومع كل هذه التصرفات الغريبة والمتناقضة ، فقد اعتبر بروجش من أكبر علماء المصريات على مدى العصور . وقد أجمع الكتاب على هذا ، رغم تصرفاته الشاذة ، وانقطاعه الغريب عن العالم إذا ما غرق في مشكلة علمية تاريخية ، ورغم انه كان يعامل المومياات كما لو كانت بشراً على قيد الحياة ... فهل كان بروجش ضحية من ضحايا لعنة الفراعنة ؟
الثابت انه كلما كانت تطول إقامته بمصر ، كانت تصرفاته تبدو أكثر غرابة وشذوذاً ، كان غارقاً في عمله الأثري بمصر ، عندما غادر القاهرة فجأة مسافراً إلى برلين ، مطالباً المسؤولين بتعيينه في الجامعة الألمانية استاذاً لكرسي الآثار في مكان الأستاذ ريتشارد ليبوس .: والغريب في الأمر أن الأستاذ المذكور كان ما زال يشغل ذلك الكرسي . بعدها ، راح بروجش يهدد بأنه سيقبل عرضاً في موقع مناظر بباريس إذا لم يستجب لطلبه ، واكتشفت السلطات الجامعية بعد ذلك أن أحداً من جامعة باريس لم يطرح عليه مثل ذلك العرض ! . ثم راح يدلي بأحاديث إلى الصحافة

الألمانية ، زاعماً انه يتعرض للاغتيال من قبل زملائه العلماء ! ..

الموهبة المبكرة .. والغريبة

وينتقل فاندنبرج بعد ذلك إلى الحديث عن شخصية أسطورية أخرى ، جان فرانسوا شامبليون الذي نجح في كشف رموز الكتابة الهيروغليفية . ذلك الكشف الذي يعتبر علامة طريق في تاريخ علم الآثار المصرية القديمة ، وأفاد فائدة كبرى في تسهيل مهمة كل من عمل في دراسة الآثار المصرية بعد ذلك . وكلمة «هيروغليفية» ، كلمة يونانية قديمة تعني «الصور المقدسة» . فمنذ زمن الإغريق ، وحتى نجح شامبليون في حل ألغاز اللغة الفرعونية ، لم يكن يقال عن الكتابات الهيروغليفية سوى انها من الرموز السرية الغامضة المقدسة . وإلى نهاية القرن الثامن عشر ، اعتقد بعض الباحثين ان هذه الرموز لها قواها السحرية ، ومن ثم امتنعوا عن دراستها .

ومن أول من تصدوا لفك رموز اللغة الهيروغليفية ، عالم الآثار الهولندي يورجن زوجا ، ورغم أنه لم ينجح في مهمته ، إلا أنه توصل إلى حقيقة أفادت شامبليون كثيراً في عمله ، وهي أن الرموز التي تظهر في النصوص الهيروغليفية داخل الإطارات البيضاوية «الخراطيش» ، هي أسماء فراعنة .

وحياة شامبليون القصيرة والمثيرة ، تخضع في أغلبها لعوامل قدرية . حتى قبل ولادته ، قال قارئ الطالع لوالده الذي كان يعمل في تجارة الكتب بجنوب فرنسا ، أنه سينجب من «يلقي ضوءاً جديداً على حياة القرون القادمة» . وقد أظهر جان فرنسوا الذي ولد عام ١٧٩٠ موهبة مبكرة . ولم يكن قد بلغ الخامسة ، عندما كان يطلب من والدته أن تقرأ له فقرات

من الإنجيل ، ثم يبدأ على الفور في ترديد هذه الفقرات كلمة بكلمة .
تخوف الوالد من هذه الموهبة المبكرة والغريبة لطفله ، فطلب من زوجته أن تمتنع عن القراءة للصغير ، مما دفع بالصغير إلى سرقة كتاب مقدس من مخزن والده ، ودراسة الكتاب خلسة .. ورغم أنه لم يكن قد تعلم القراءة أو الكتابة فقد نجح في تحديد موقع الفقرات التي كان قد حفظها . فأسرع والده بإرساله إلى المدرسة المحلية ، حتى ينخرط في سلك التلاميذ العاديين ولا يعود إلى ممارسة مواهبه الغريبة .

حجر رشيد

كان لجان فرانسوا أخ أكبر ، هو جاك جوزيف يتميز هو الآخر بشخصية تراجيدية . كان قد درس التاريخ ، وأصبح مهتماً بالفن المصري القديم . وعندما جهز نابليون الحملة المصرية عام ١٧٩٨ ، حاول جاك جوزيف بكل طريقة أن يسافر ضمن العلماء والباحثين الذين صاحبوا الحملة . وعندما فشل في ذلك ، سافر ، مستاء ، إلى مدينة جرينوبل ، حيث عمل بالتجارة .

وفي عام ١٨٠١ أرسل في طلب أخيه الأصغر ليهيئ له تعليماً أفضل في جرينوبل . وعندما أقام جان فرنسوا عند شقيقه ، كان أكثر ما استهواه في البيت ، مجموعة من أعداد الجريدة التي كانت الحملة الفرنسية إلى مصر تصدرها بشكل منتظم . وهذه الجريدة بالذات هي التي رسمت مستقبل شامبليون الأصغر . فقد نشرت في أحد أعدادها تقريراً عن حجر عثرت عليه قوات نابليون في دلتا النيل بالقرب من قرية رشيد عام ١٧٩٩ .

كان الحجر من البازلت ، وقد نقشت عليه ثلاثة نصوص بلغات مختلفة : هيروغليفية ، وديموطيقية «وهي تبسيط للكتابة الهيراطيقية» ، وإغريقية .

كان من السهل ترجمة النص الإغريقي ، وتبين عند ذلك أنها رسالة شكر من كهنة ممفيس كتبت عام ١٩٦ قبل الميلاد ، موجهة إلى بطليموس الخامس ، عند توليه الملك . فقد عرف بطليموس بميله إلى الكهنة ، فخفف عنهم الضرائب ، وأتاح مصادر دخل جديدة لخزينة المعابد ، كما وفر عناية خاصة للمعابد في زمن الحرب . وكان نص الرسالة يقول ما معناه :

«بطليموس الخالد ، محبوب بتاح ، وابيفانس الإله الذي قدم الكثير للمعابد ومن يعيش فيها ، الذين يعيشون في ظل حكمه ، لأنه الإله ، ابن إله وآلهة ، انه مثل حورس ، ابن ايزيس وأوزيريس ، الذي حمى والده من الأخطار» .

كان من الواضح أن النصين الأولين هما ترجمة لنفس النص الاغريقي ، لهذا جرى إعداد نسخ كثيرة من نقوش حجر رشيد . وانهمك الدارسون في أنحاء البلاد ، في محاولات لحل لغز الكتابة الهيروغليفية .

وكان جان فرانسوا شامبليون في الحادية عشرة من عمره عندما أخذ على عاتقه فك رموز حجر رشيد .. وقد تواصلت محاولاته الدائبة في هذا المجال لمدة ٢١ عاماً ! ..

حلم الطفولة وحكم الإعدام

عندما أنهى شامبليون دراسته الثانوية عام ١٨٠٧ ، واستعد للالتحاق

بأكاديمية العلوم، كان في السابعة عشرة من عمره ، يدرس اللغة الديموطيقية وكان توصل إلى معرفة أن اللغة الهيروغليفية تعتمد على رسوم تعبر عن أصوات ورموز . وقد أحصى شامبليون ٤٨٦ كلمة في النص الاغريقي ، في مقابل ١٤٦٩ رمزاً هيروغليفياً . واستنتج أن أسماء الأعلام والأماكن لا بد وأن يكون لها نفس النطق في اللغات الثلاث . وقد سبقه الطبيب الإنجليزي توماس يونج في فك رموز اسم بطليموس نتيجة لتكرار هذا الاسم في النص .

قرر شامبليون أن يواجه المشكلة بالدوران حولها . فسعى إلى الحصول على صورة نقوش فرعونية على احدى المسلات ، وكانت الترجمة الإغريقية لذلك النص معروفة يرد فيها اسم كليوباترا بشكل متكرر . واستطاع شامبليون أن يتعرف على الرموز الدالة على اللام والباء والتاء أو «الطاء» ، وهي حروف مشتركة بين كليوباترة وبطليموس . ومن ثم استنتج أن الرمز السابق لرمز اللام في اسم كليوباترة هو رمز الكاف ..

في ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ ، حصل شامبليون على نسخ من بعض النصوص الفرعونية .. وبنظرات سريعة استطاع أن يفك رموز الأسماء فيها بشكل صحيح .. أدرك شامبليون أنه توصل إلى طريقة ستقوده إلى قراءة النصوص الهيروغليفية ، فصاح أمام أخيه الأكبر بفرحة طاغية «لقد نجحت .. لقد نجحت ..» .

رفع ذراعيه عالياً ، ثم ارتمى على الأرض كما لو كانت قد أصابته صاعقة ! وبقي غائباً عن الوعي لخمسة أيام متتالية !

عندما أفاق شامبليون من غيبوبته ، راح يصف بعض الرؤى الغريبة

التي شهدها في غيبوبته ، ويتمتم بأسماء الفراعنة الذين نجح في كشف رموز أسمائهم ، ويردد هذه الأسماء مرات ومرات دون توقف !

في ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ ، أعلن شامبليون عن اكتشافه في أكاديمية باريس . وحظي بلقب أستاذ المصريات . وفي عام ١٨٢٧ ، سافر إلى مصر على رأس بعثة استكشاف بالاشتراك مع ايبوليتو روسيلليني من جامعة بيزا . وقد اشترك في تمويل هذه البعثة الملك الفرنسي شارل العاشر والحكومة التوسكانية .

هكذا تحقق حلم طفولته ، لكن تحقيقه كان بمثابة حكم الإعدام عليه !

فقد مات شامبليون عام ١٨٣٢ بعد عودته من مصر مباشرة ، بعد أن أصيب بالشلل ، ولم يستطع الأطباء تحديد سبب الوفاة التي أنهت حياته وهو في الثانية والأربعين من عمره .

هل هناك صلة ما بين هذه النهاية ، وما يشيع عن لعنة الفراعنة ؟

قبل أن نجيب عن هذا التساؤل ، يجب أن نعرف شيئاً عن نهاية العالم الأثري باتيستا بلزوني التي كانت أكثر غموضاً .

الحمّى الفرعونيّة

الوقائع الغامضة لوفاة الأثريين والمستكشفين الذين كانت لهم صلة دائمة ومباشرة ، بالآثار المصرية القديمة ، يدعمها ما جرى للمستكشف الإيطالي الأصل جيوفاني باتيستا بلزوني ، الذي ولد عام ١٧٧٨ لأب يعمل حلاقاً في مدينة بادوا . وكان حلم الوالدين أن يصبح جيوفاني قسيساً لكنه أصبح أي شيء وكل شيء ما عدا ذلك الذي حلم به الوالدن . عمل كلاعب في السيرك يرفع الأثقال ويستعرض قوته ، واشتغل بالتمثيل والغناء في الأوبرا ، وبالاستكشاف الجغرافي والأثري ... حتى ليقال إنه من الأسهل حصر الأعمال التي لم يمارسها جيوفاني ، عن حصر الأعمال التي مارسها .

أمضى جيوفاني طفولته وصباه في إيطاليا مسقط رأسه ، ثم تنقل بعد ذلك لباقي حياته بين إنجلترا والبرتغال وأفريقيا . مضى إلى انجلترا مع فريق من الممثلين ، ولما كانت لغته الإنجليزية ضعيفة ، فقد دفعه عجزه هذا إلى التفوق في التمثيل الصامت . ثم عمل بعد ذلك كمغن للأوبرا . وأثناء إقامته في لشبونة تزوج من انجيلكا فالانبريك .

حتى بلزوني نفسه لم يكن يجد تفسيراً لرغبته الجامحة في السفر والترحال . دافع غامض كان دائماً وراء ارتحاله من أي مكان يستقر فيه ، يظل يضغط

عليه حتى ينتقل إلى مكان جديد .. ما أن يستقر فيه قليلاً ، حتى يبدأ ذلك الدافع الغامض عمله من جديد . وبعد أن مارس عشرات الأعمال وشغل عشرات الوظائف ، طبع بطاقة زيارة رسمية باسمه واصفاً نفسه تحت الاسم بعبارة «الرحالة الشهير» .

عشق بلزوني أفريقيا ، وقام باستكشاف العديد من مناطقها الغربية ، يريد أن يجيب عن التساؤل الشائع في ذلك الحين : هل النيل والنيجر يتفرعان من أساس واحد ؟ وقد زار مصر لأول مرة عام ١٨١٥ .. لم يزرها كلاعب سيرك أو مغني أوبرا أو عالم آثار ، بل زارها كمخترع ! .. كان قد توصل إلى تصميم ساقية ، قال إنها تقوم بعمل أربع سواقي من المعروفة في ذلك الوقت . وقد جاء إلى مصر ليتقدم باختراعه هذا إلى حاكم مصر القوي محمد علي باشا وعندما لم يجد حماساً لاختراعه ، تحول «الرحالة الشهير» إلى اهتمام آخر في مصر ، وهو علم الآثار المصرية .

في هذا ، وجد بلزوني الوقت ملائماً والحظ مواتياً . فمنذ أن قام نابليون بحملته على مصر ، زاد الطلب في جميع أنحاء العالم على كل ما هو مصري . كانت الرسوم والمطبوعات والتذكارات من الصناعات اليدوية القادمة من أرض العجائب القائمة على شاطئ النيل تباع بأسعار خيالية . وهكذا بدأ بلزوني ، الرجل القوي ، عمله في مصر ، باحثاً عن الكنوز المدفونة لمدة خمس سنوات .

اصطياد المسلة الغارقة

بدأت صلته بالقنصل العام البريطاني في مصر ، بتمهيد وتعريف من

الرحالة السويسري يوهان لودفيج بوركهارت ، فاعتمد القنصل العام على بلزوني في نقل تمثال ممنون الضخم الذي عثر عليه في الأقصر . كان على بلزوني أن ينقله من الأقصر إلى الاسكندرية ، حيث يتم شحنه إلى لندن .. وكانت هذه المهمة هي البداية ..

فقد تولى بلزوني بعد ذلك العديد من المهمات . ذات مرة أوكل إليه الإشراف على نقل إحدى المسلات الضخمة من صعيد مصر إلى الاسكندرية عبر النيل . وبينما كان بلزوني يسعى إلى نقل المسلة إلى البر ، سقطت المسلة وغرقت في النيل . وبعد عدة مغامرات استطاع بلزوني اصطيادها من قاع النيل ، ونجح في المهمة التي أوكلت إليه . لكن حلم بلزوني الذي كان يراوده دائماً ، هو أن يقوم بالحفر والتنقيب لحسابه وبنفسه . وقد نجح في آخر الأمر في تحقيق ذلك الحلم .

يحكي بلزوني عن ظروف العمل والتنقيب في مدينة الموتى بطيبة عند بداية عام ١٨٠٠ ، فيقول :

«وجدت نفسي محشوراً في ممر طوله حوالى ٢٠ قدماً ، ولا يزيد عرضه على ما يسمح بحشر جسم إنسان . كنت محاطاً بالموميات ، ولم يكن من السهل التقدم في ذلك الممر ، دون أن يحتك وجهي بجماجم قدماء المصريين . لكن عندما مال الممر إلى أسفل ، ساعدني وزني على الإنزلاق في ذلك الممر ، ومع هذا لم يكن بإمكاني تفادي اندفاع عظام الموتى التي كانت تتساقط من أعلى لتغطي ساقي وذراعي ورأسي . وهكذا أخذت طريقي من كهف إلى كهف ، مملوءة كلها بالموميات المتكومة فوق بعضها بمختلف الطرق ، بعضها واقف ، وبعضها راقد ، وبعضها منتصب على رأسه ! »

بالإضافة إلى ما لا يحصى من المومياوات المدفونة بلا أكفان كالتي يحظى بها الأغنياء ، أو تلك المومياوات التي سبق لصوص المقابر إلى سرقة جواهرها ، استطاع بلزوني ، بعد خيبات أمل متكررة ، أن يحصل على بعض الأشياء التي لها قيمتها الأثرية . والأمر لم يكن سهلاً ، حتى في عام ١٨١٧ . العديد من المقابر التي كانت محفورة في الصخر ، اتخذها الفلاحون مساكناً لهم ولعائلاتهم وماشيتهم .. في ذلك العام اكتشف بلزوني مقبرة أحد الفراعنة ، كانت فرحته كبيرة عندما وجد أنها مقبرة سيتي الأول ، ابن رمسيس الأول ، وانشغل بلزوني بهذه المقبرة لمدة عام كامل ، فبالإضافة إلى حس المغامرة الأصيل فيه ، كان قد بدأ يظهر اهتماماً أكاديمياً متزايداً .

وكان في نفس الوقت يقوم بعمل نماذج مجسمة ورسوم للأشياء التي يعثر عليها ، وقد كتب في مذكراته أن ما توصل إليه في تلك المرحلة ، عوضه عن كل الجهد الذي بذله في هذا السبيل .

في هرم خفرع

في ذلك الوقت أصبح بلزوني مشغوفاً بالاستكشاف الأثري ، ذلك الشغف الذي صنع نهايته ...

كان يبدي بصفة خاصة إعجاباً زائداً بهرم خفرع ، الذي لم يكن قد عرف بعد الطريق إلى غرفة الدفن التي بداخله . لقد حرص بلزوني على اختبار كل حجر تقريباً من الأحجار التي تصنع صرح ذلك الهرم ، الذي يرتفع إلى ١٣٦ متراً ، إلا انه لم يستطع أن يكتشف مدخلاً للهرم . ومع هذا بقي بلزوني على ثقته بنفسه وأمله في الوصول إلى هدفه . وفكر انه إذا لم

ينجح في اكتشاف باب في جسم الهرم «كما هو الحال في هرم خوفو» ، فلا بد أن يجد ذلك الباب في مكان ما تحت الأرض حول الهرم .

كانت التلال الرملية تغطي المنطقة الشمالية من الهرم ، والتي توقع أن يجد فيها المدخل المطلوب . أسرع بلزوني يستأجر فرقاً من العمال لإزاحة هذه الرمال ، فاكتشف ممراً يبدو أنه من صنع لصوص المقابر في زمن سابق . عندما مضى بلزوني في ذلك الممر ، سقط فجأة من أعلى حجر كبير فسد الممر . يقول بلزوني إن ذلك الحجر بلغ بعداه ١٢٠ سم ، ١٨٠ سم . وقد سقط الحجر على أحد العمال المصريين ، لكن الرمال التي كانت تملأ الممر إلى مستوى ارتفاع ركبة الإنسان ، أنقذت حياة العامل ، وتم اسعافه .

كان اختبار الأحجار الصخرية يوحي باستحالة المضي في هذا السبيل ، ووجد بلزوني نفسه في وضع يائس . كان يمضي الأيام الكاملة عند هرم خوفو ، دارساً الثغرة التي في حائطه والتي تقود إلى أنفاقه . قام بعمل الرسوم والتخطيطات للزوايا المستخدمة في تصميم ممر المدخل . راح يراجع الاتجاهات الجغرافية ومسارات هبوب الرمال ، ووصل من ذلك إلى استخلاص مفاده أن مدخل هرم خفرع لا بد ان يكون في اتجاه الشرق البعيد.

أثارت فضول بلزوني ثلاث كتل جرانيتية مغطاة بالرمال . واكتشف فعلاً أحد الممرات الذي ينحدر بشدة وراء واحدة من هذه الكتل . وقد انتهى امتداد ذلك الممر بعد ٣٠ متراً عند حائط صخري . أمضى بلزوني شهراً كاملاً من العمل الشاق يحاول أن يكسر حجراً واحداً من ذلك الحائط إلى أن فتح ثغرة صغيرة ، تسمح بإدخال جسم الإنسان بصعوبة .

حمل بلزوني مصباحه ، ومضى في الممر الأفقي الذي صادفه . وشعر

أنه يعرف طريقه ، فنظام الممرات كان شبيهاً بالممرات التي في هرم خوفو .
قال بلزوني في تقريره «عندما سرت غرباً ، كانت دهشتي كبيرة عندما وجدت قبراً في أرض المكان ، لم يكن يضم سوى بعض الأحجار والعظام» . وبلغ استياء بلزوني مداه ، عندما قرأ على حائط الممر «فتح هذه الغرفة نحات الأحجار محمد أحمد ، وكان ذلك في حضور المعلم عثمان من البداية إلى النهاية» :
أدرك بلزوني ساعتها أنه قد وصل متأخراً بعدة قرون .

أشعر بيد الموت

رغم أن هذه العملية لم تكلل بالنجاح الكامل ، فقد استطاع بلزوني أن يجني مالاً كثيراً من القبور التي كان ينقب فيها . مثال ذلك المومياء التي باعها ، والتي كان قد وجدها في مقبرة سيتي الأول . وعندما عاد بلزوني عام ١٨٢٠ إلى انجلترا ، أقام معرضاً لمقتنياته الأثرية ، جمع منه المال اللازم لتجهيز رحلته الاستكشافية إلى أفريقيا . لكنه لم ير مصر مرة أخرى بعد ذلك ، فهل أنقذه هذا من أن يقع تحت طائلة لعنة الفراعنة ؟ ..
في ربيع عام ١٨٢٣ ، سافر بلزوني وزوجته من لندن إلى طنجة ، في سفينة مهترئة بها مقصورة تتسع لستة أشخاص وحمام واحد . وكانت الثغرات التي في جوانب السفينة تدفع بالمياه إلى داخلها كلما هاج البحر . وصلت السفينة إلى غايتها في أبريل . وكانت خطة بلزوني أن يخترق الصحراء متجهاً إلى السودان ، لكن زوجته لم تبد استعداداً للمضي معه أبعد من مدينة فاس المراكشية ، وعادت إلى انجلترا .

ما أن مضى بلزوني قليلاً في الصحراء ، حتى عاد أدراجه ، عندما تصدت له قبائل الطوارق ، ومنعته من التوغل أكثر من ذلك في الصحراء . وعزم بلزوني على مواصلة الرحلة بحراً في اتجاه سيرا ليوني . في هذه المرحلة من الرحلة ، ظهرت على بلزوني أعراض مرض غامض أشبه بذلك الذي أصاب غيره من الأثريين الذين عملوا بمصر .. الحمى الممزقة ، وما يصاحبها من غيبوبة وهذيان .

وعندما أخذوه إلى الطبيب ، أعطاه بعض العقاقير ، فقال بلزوني «أشعر بيد الموت تمتد إلي .. » . وقد حمله صحبه إلى السفينة على أمل أن ينعشه هواء البحر ، لكنه كان يهذي بحديث مختلط مفكك . ثم قال فجأة «لم يبق لي في الحياة سوى بضع ساعات .. أعلم هذا تماماً .. » . ثم خلع خاتماً من أصبعه ، وهو يقول لخادمه الأسود «أعطوا هذا الخاتم لزوجتي» . ومات بلزوني في عصر يوم ٣ ديسمبر عام ١٨٢٣ ، وقد بلغ من العمر ٤٥ عاماً .

بلهارس مكتشف أثري

وإذا كانت الوفاة المبكرة لبلزوني قد أثارت بعض الحيرة ، فإن الذي أثار المزيد من الحيرة ، كان وفاة الطبيب والعالم تيودور بلهارس في مصر وهو في السابعة والثلاثين من عمره .

كان تيودور ابناً لموظف بسيط في محكمة من محاكم ألمانيا : ومنذ صباه كان يهوى جمع الحجارة ونماذج النباتات وأنواع الخنافس . وكان يسجل مقتنياته ويصنفها بدقة في دفاتر يحتفظ بها في عناية . وفيما عدا

الرياضيات ، كان تيودور معتبراً من التلاميذ المثاليين . وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره التحق بجامعة فريبورج لدراسة الطب وعلم الحيوان وتاريخ الأدب وعلم الآثار والفنون الكلاسيكية . بعدها بسنتين ، ترك جامعة فريبورج إلى جامعة توبينجن ، حيث استكمل دراسته الطبية .

وعندما نظم عميد كلية الطب مسابقة علمية ، شارك بلهارس بكتابة بحث عن « معارفنا حول دم اللافقريات » . فحصل على الجائزة الأولى ، واعتبر هذا البحث هو الرسالة التي يحصل بها على درجته العلمية .

بعد تخرجه عمل في توبينجن مع الأستاذ الطبيب ولهلم جريزنجر . وعندما اختير ذلك الأستاذ للعمل في مصر عام ١٨٥٠ كطبيب خاص لحاكم مصر ، ومديراً طبياً عاماً ، اصطحب معه الطبيب الناشئ بلهارس كمساعد له . وقتها ، لم يكن بلهارس يتصور أن يخلف أستاذه بتلك السرعة . فبعد وقت قليل ، غادر الأستاذ مصر عندما لم تعجبه طبيعة العمل المسند إليه ، فخلا المجال لبلهارس .

أثناء إقامة بلهارس في مصر ، بدأ يفكر في ممارسة هواياته القديمة . فاتجه إلى التنقيب عن الآثار المصرية القديمة . وقد حظي اهتمامه هذا بالترحيب ، نتيجة لمعارفه الأثرية الغزيرة ، ونتيجة لتمكنه من اللغات ، الأمر الذي سهل له أن يتفاهم مع جماعات العاملين في التنقيب ، من مصريين وإنجليز وإيطاليين .

وفي عام ١٨٥٦ تم تعيين بلهارس أستاذاً للتشريح الوضعي بجامعة فريبورج . فأبدى اهتماماً بتشريح الموميات ، ذلك العمل الذي يجمع بين معارفه الطبية والأثرية .

وكأستاذ في علم الأمراض «الباثولوجي» كانت هديته إلى البشرية ، اكتشافه لسر ذلك المرض الغريب الذي يشيع في المناطق الاستوائية والذي كان يقضي على العديد من المصريين لآلاف السنين ، وقد أطلق على ذلك المرض اسم «بلهارسيا» تكريماً لجهده الطبي . ومما هو جدير بالذكر ، الإشارة إلى أن دكتور بلهارس اكتشف بيض ديدان البلهارسيا في كليتي مومياء مصرية يرجع تاريخها إلى الأسرة العشرين .

لا أحد يعلم

في صيف ١٨٥٨ مات أربعة سياح أوروبيين على التوالي خلال أيام معدودة ، بعد زيارتهم لاهرامات الجيزة ، ومقابر وادي الملوك . لم يشر ساعتها أحد للعنة الفراعنة ، لكن دار الحديث عن وباء التيفود . وقد جرى تشريح الجثث الأربع لطمأنة الرأي العام . والتقرير الرسمي يشير إلى عدة أسباب للوفيات الطاعون الشرقي ، وفقر الدم ، وحمى التيفود . لكن الجراح النمساوي الكسندر راير ، وزميله جورج لاوتنر ، صرحا بعد ذلك أن نتيجة التشريح قد بدلت عمداً ، ومع هذا فلم يعط الطبيبان تفسيراً بديلاً لسبب الوفيات الغامضة .

وفي عام ١٨٥٨ ، تم تعيين بلهارس رئيساً للجمعية المصرية ، ووجد نفسه في مواجهة التزامات اجتماعية متزايدة . ونظراً لمعارفه اللغوية والأثرية الغزيرة ، كانت توكل إليه مهمة مرافقة كبار الشخصيات الأجنبية الزائرة ، لمشاهدة الآثار المصرية . وعندما وصل الدوق أرنست الثاني إلى مصر في صيف عام ١٨٦٢ ، رافق بلهارس زوجة الدوق في جولتها الأثرية

بالأقصر . وفي رحلة العودة إلى القاهرة ، وقع بلهارس صريع نوبة حمى عنيفة .

عندما علم دكتور لاوتنر بذلك ، طلب إحضار دكتور بلهارس إلى منزله ، حيث بقي في غيبوبة لمدة أسبوعين ، ثم مات دون أن يعود إلى وعيه . ولم يستطع لاوتنر أن يشخص سبب الوفاة . ورغم أن السجلات تقول إن دكتور بلهارس مات بالتيفود ، فان لاوتنر رفض هذا التشخيص قائلاً إن زميله وصديقه مات متأثراً بخمى غامضة لا صلة لها بالتيفود .

أما كيف أصابته الحمى ؟ ومن أين جاءته ؟ لا أحد يعلم .

كارتر يؤكد القاعدة

إن قائمة علماء الآثار المصرية الذين لاقوا ميتات غامضة خلال القرن الماضي تبدو وكأنه لا نهاية لها . ودراسة هذه الحالة تجعلنا نستخلص منها ثلاثة أسباب للوفاة : حمى مع هذيان مع توقع للموت ، سكتة مصحوبة باختلال في الجهاز الدوري وسرطان مفاجئ يقضي على الحياة بسرعة .

ريتشارد لبسيوس «١٨١٠ - ١٨٨٤» عالم الآثار الألماني الشهير الذي شحن مقابر كاملة من وادي الملوك إلى برلين «من بينها عامود كامل من مقبرة سيتي الأول «طالت حياته عن باقي زملائه ، لكنه عانى أيضاً من سكتة دماغية تركته نصف مشلول . أرجع الأطباء سبب الوفاة إلى السرطان .

عالم المصريات جورج مولر «١٨٧٧ - ١٩٢١» الذي أشرف على حفريات أبو صير ومدينة الموتى في دير المدينة ، كان خبيراً في طقوس

الدفن المصرية القديمة ، وأمضى وقتاً طويلاً داخل المدافن ، وكأغلب علماء المصريات ، كان مأخوذاً بمهنته التي احترفها منذ أن كان صبياً ، وكان قادراً على فك رموز اللغة الهيروغليفية أثناء مرحلة الدراسة الثانوية . عندما بلغ الثامنة والعشرين من عمره ، جرى تعيينه ملحقاً علمياً بالقنصلية الألمانية العامة بالقاهرة . وقد مات وهو في الرابعة والأربعين .. سبب الوفاة قشعريرة وحمى .

جيمس هنري بريستيد ، الأستاذ بجامعة شيكاغو ، الذي كانت مؤسسة روكفلر تنفق على بحوثه ، وقد قام بالعديد من الاستكشافات الأثرية بمصر . وصلها كشاب عام ١٨٩٤ ، وكان قد حصل لتوه على شهادة دكتوراه فلسفة في موضوع اختصاصه من جامعة برلين . على مدى سنوات إقامته بمصر ، كان يعاني من الحمى .. قال ابنه تشارلز بريستيد ، ان والده كان كلما اقترب في سفره من الأقصر عادت إليه على الفور نوبات الحمى . وكانت هذه الحمى تداهمه عصر كل يوم ، مع آلام في الزور ، ونوبات رعشة متعاقبة ، وظل على ذلك الحال حتى مات .

كان الظن السائد إنه كان يعاني من حمى الملاريا . لكن الاختبارات والتحليلات المعملية التي أشرف عليها الأساتذة والأطباء البريطانيون لم تؤيد هذا التشخيص . ورغم تداعي جسد بريستيد بسبب الحمى فقد واصل عمله مع كارتر في التمهيد لفتح مقبرة توت عنخ آمون . كما بذل جهداً كوسيط بين كارتر وبين الحكومة المصرية حول حقوق كارتر في المقبرة التي اكتشفها .

وكان كارتر هو الذي مكث أكثر من بريستيد في مقبرة توت عنخ

آمون . ومع هذا ، فقد بقي على قيد الحياة حتى السادسة والستين ، رغم انه كان يتخذ من المقبرة منزلاً ثانياً له وقد نظر البعض إلى حالة كارتر هذه باعتبار أنها الدليل العملي على كذب أسطورة لعنة الفراعنة ، بينما قال البعض الآخر أنها الشذوذ الذي يؤكد القاعدة .

أعجب عَمَليّة تشْرِيح

في محاولة للبحث عن سر ما يدعى بلعنة الفراعنة ، اتجه البحث إلى دراسة مومياء الفرعون الذي أثار ظهوره هذه اللعنة . وبدأت أغرب عملية تشريح في التاريخ ، وكان الجثمان الراقد أمام الدكتور دوجلاس ديري في ١١ نوفمبر ١٩٢٥ .قد توفي صاحبه منذ ٣٣ قرناً !

بلغ التوتر مداه في العاشرة إلا ربع من صباح ذلك اليوم ، عندما دخل دكتور ديري ، وهيوارد كارتر إلى قاعة التشريح ، بمعهد التشريح في جامعة القاهرة . وأمام الجثمان الملفوف في الأربطة البيضاء ... كانا أمام جثمان توت عنخ آمون .. وإذا كان تشريح المومياء قد خلق جواً من الإثارة ، فإن نتائج التشريح قادت إلى مفاجأة مثيرة لم يتوقعها أحد .

جاء في التقرير الذي كتبه كارتر عن هذه الواقعة :

« في العاشرة إلا ربع من صباح ١١ نوفمبر بدأ تشريح المومياء الملكية . حضر هذا صاحب السعادة صالح عنان باشا وكيل وزارة الأشغال العامة ، وصاحب العزة سيد فؤاد بك الخولي مدير مديرية قنا ، والسيد بيير لاكو مدير عام مصلحة الآثار ، ودكتور دوجلاس ديري أستاذ التشريح بكلية الطب بجامعة القاهرة ، ودكتور صالح بك حمدي مدير الخدمات الصحية بالإسكندرية ، ثم السيد لوكاس كيميائي مصلحة الآثار ، والسيد هاري بورتون ، من متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك ، وتوفيق أفندي بولس

المفتش العام بمصلحة الآثار بالوجه القبلي ، ومحمد شعبان أفندي مساعد أمين متحف القاهرة » .

كان مصدر الإثارة في قاعة التشريح ، ان ذلك الجثمان الذي سيجري تشريحه ، لم تمسسه يد بشر منذ وفاة فرعون . لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لدكتور دوجلاس ديري ، لقد ثارت لديه بعض الهواجس ، وراودته المخاوف حول العمل الذي يقدم عليه ، فكتب في مذكراته :

« يجب أن أذكر هنا بعض الكلمات في الدفاع عن فك لفائف مومياء توت عنخ آمون وتشريحها . الكثير من الناس ينظرون إلى مثل هذا العمل باعتباره انتهاكاً لحرمات وتدنيساً لمقدسات .. ويرون أن من حق فرعون أن يترك لحاله بلا ازعاج .. » .

لكن هذه الهواجس والمخاوف ، لم تمنع دكتور ديري من المضي قدماً في مهمته . وفي التقرير التفصيلي الدقيق لعملية التشريح ، يقول هيوارد كارتر :

« تمت إزاحة الزخارف الخارجية واللفائف المذهبة ، فظهرت مومياء الملك عارية بغطائها الخارجي المتواضع ، وبقناعها الذهبي . كانت المومياء ترقد وقد مالت إلى جانبها بعض الشيء ، مما يوحي أنها قد تعرضت لصدمة عند إنزالها إلى التابوت . كانت اللفافات الحريرية للمومياء متفحمة وهشة ، لذا جرى طلاء السطح الظاهر للمومياء بشمع البرافين المنصهر ، الذي يتجمد عندما يبرد ويضع طبقة عازلة تحمي اللفافات المتهرئة التي تحيط بالمومياء ويحفظها على حالها . قام دكتور ديري بعمل فتحة طولية في الغطاء القماشي الخارجي للمومياء عند وسطها .. وبالعمق الذي تسلل إليه الشمع ، مما سمح بإزاحة القماش كقطعة واحدة دون أن يتفتت . غير أن

المتاعب لم تنته عند هذا الحد . فقد وجدت الطبقات السفلى من الكفن ، أكثر تفحماً وتحللاً . . » .

الحديد يظهر لأول مرة

عند فك الأربطة التي حول المومياء عثروا على ١٤٣ قطعة من الحلي والجواهر بين طبقات القماش . وقد وضعت كل قطعة على وسادة صغيرة من الحرير حتى لا يؤثر وجود المجوهرات على الشكل العام للمومياء .

أما الرأس فقد لفت حوله أربطة مستقيمة ومائلة ، وظهر تحت هذه اللفائف ما يشبه الوسادة تحمي وجه توت عنخ آمون من القناع الذهبي الثقيل الذي وضع فوقه . وقد حمل العنق على تعويذة تأخذ شكل الوسادة عبارة عن قوس دائري يحمله قائم رأسي . وقد لفتت هذه التعويذة الأنظار لسببين : أولاً لأنها صنعت من الحديد ، وهو معدن لم يظهر له أي وجود في أنحاء المقبرة ، ثانياً للمعنى الرمزي لهذه التعويذة الذي يعتمد على أحد نصوص كتاب الموتى ، والذي يقول «أفق من اغماءتك التي تنام فيها . فانك ستنتصر على كل ما يجري ضدك . لقد انتصر بتاح على اعدائك . فلم يعد لهم وجود» . وقد اهتم علماء الأشعة بهذه التعويذة الغريبة ، فقد كانوا يفكرون في احتمال أن يرجع التأثير الذي يطلق عليه لعنة الفراعنة ، إلى نوع من الإشعاعات القاتلة تصدر عن بعض عناصر المقبرة .

كان توت عنخ آمون يرتدي ٢١ تعويذة أخرى حول عنقه . وكلما كان دكتور ديري يكشف طبقة جديدة من شرائط الكفن الحريرية ، كانت تظهر تعويذات جديدة ترمز إلى إيزيس وأوزيريس والثعبان المقدس

وحورس وأنوبيس ، آلهة المصريين القدماء . والمفروض أن هذه التعاويذ تفيد في حماية فرعون وهو يأخذ طريقه إلى عالم الموتى .

كهنة أم علماء

والسؤال الآن ، هل كان الكهنة ، الذين يمثلون الطبقة العليا من المثقفين في مصر القديمة ، هل كانوا هم أيضاً يؤمنون بالقوى السحرية لتلك التعاويذ ؟ أم أنهم كانوا يستخدمون معارفهم المتراكمة وعلمهم الغزير الذي يتفوقون به على باقي مواطنيهم ، في إعطاء هذه التعاويذ بعض التأثيرات الكيميائية أو الإشعاعية ، مما يؤكد فعاليتها أمام الناس ؟

ومن المهم هنا أن نشير إلى حقيقة يجب أن ننتبه لها . وهي أن اعتماد الكهنة على الطاقة الإشعاعية لإحداث تأثير ما ، لا يعني بالضرورة أن يعرف الكهنة الأساس النظري لتأثير الإشعاع على البشر ، أو لتوليد الاشعاع من عناصره . كما أن استخدام الكهنة لبعض الفيروسات لحماية المقبرة لا يعني أبداً معرفة الكهنة بنظرية الفيروسات . المعول هنا على معرفة الكهنة بتأثير الظاهرة فقط .

مثال ذلك اكياس الرمل الصغيرة التي كانت تباع في بوهيميا لعلاج الصداع والأمراض الروماتيزمية ، قبل اكتشاف العلاج بالأشعة بزمن طويل . في ذلك الوقت ، أدان الأطباء هذا العلاج ، أعلنوا أن تصور قدرة هذه الأكياس على شفاء شيء عند الإنسان لا تخرج عن نطاق الخزعبلات والخرافات ، هذا رغم كل الشواهد العملية التي تفيد تحسن حالة المرضى نتيجة لاستخدام هذه الأكياس . فمن الذي كان على حق ؟ رغم غرابة

الجواب ، فقد أثبتت الأيام خطأ قول الأطباء ! . لقد ثبت علمياً أن هذه الأكياس تحوي تراباً به بعض آثار عنصري الراديوم واليورانيوم ، لهذا فقد كان للتراب اشعاعه الخفيف . كما عرف العلماء أن اشعاع الراديوم يحلل حامض البوريك إلى حامض هيدروليك وأمونيا ، مما يساعد على تخفيف آلام المرضى .

ونحن لا ندعو بمثل هذا المثال إلى قبول كل ما تقدمه لنا الوصفات الشعبية أو البلدية ، لكننا نحض على دراسة الظاهرة لمعرفة ما قد يكمن وراء الوصفة الشعبية من أساس علمي ثابت . والطبيب الشعبي الذي استخدم هذه الأكياس قد وصل إلى حقيقة أثرها على المريض ، رغم عدم معرفته بمكونات ذلك التراب والطريقة التي يؤثر بها على الإنسان .

ونفس الشيء قد ينسحب على ممارسات الكهنة في مصر القديمة .

التعويذة الطويلة

كلما واصل دكتور ديري حل لفائف المومياء ظهر المزيد من التعاويذ ، وفي هذا يقول كارتر «عندما تم رفع لفائف الذراعين ، ظهرت سبع أساور في الذراع اليمنى ، وست في اليسرى كلها من الذهب . ومن حجم هذه الأساور يمكن استنتاج أنها كانت تحيط بذراع رفيعة جداً . فقد كانت من الحلى التي يستخدمها الفرعون في حياته . وكانت كل أصبع محاطة بعناية بشرائط من الحرير الرقيق ، ومغطاة بغلاف من الذهب» .

هكذا يمضي كارتر في وصف كل ما كان يظهر عند رفع كل طبقة من لفائف الكفن . وقد لفت نظر الجميع تميمة أو تعويذة لم يفهموا لها

وظيفة أو رمزاً . فتحت طبقة من اللفائف ظهرت تعويذة كبيرة على شكل حرف «تي» الإنجليزي موضوعة على يسار الجذع ويمتد طرفها الأسفل إلى أعلى الفخذ اليسرى .

تنتهي مرحلة رفع اللفائف عن الجسد ، ويقول ديري في تقريره :

«كان جلد الساقين ، شأنه شأن باقي الجسم ، ويتميز بلون رمادي فاتح . وكان هشاً للغاية ، تظهر فيه العديد من التشققات . وعند اختبار عينة منه ، تبين أنه ليس جلداً فقط ، بل يتكون من كل ما يوجد بين الجلد وحتى العظم ، الذي ظهر واضحاً بعد رفع هذه العينة . وكان سمك الجلد والأنسجة كلها لا يزيد على ملليمترين .. ومع كل ما طرأ على الجسد ، فقد كان من الواضح أن توت عنخ آمون كان ضئيل الحجم ، لم يكتمل نموه عند وفاته ..» .

وقد استطاع دكتور ديري أن يحدد عمر توت عنخ آمون ، باعتماده على دراسة تركيب مفصل الركبة . فتركيب المفصل ، ودرجة التكلس في غضاريفه يمكن أن يعطي فكرة عن عمر الإنسان . من هذه الدراسة تبين أن توت عنخ آمون مات عندما كان في الثامنة عشرة من عمره .

يقول دكتور ديري في تقريره :

«جدران الجذع كان بها انتفاخ في الجانب الأيمن . وقد تبين أن مرجع ذلك إلى ضغط مواد التحنيط التي تم حشو الجذع بها ، والتي أوجت من الفتحة التي على يسار الجذع . وكان طول هذه الفتحة ٨٦ ملليمتراً .. ! !

ومن المعروف أنه عند التحنيط ، كان يتم تفريغ كل ما في جوف الجسد من أحشاء وأعضاء ، وأن ذلك كان يتم من خلال فتحة أو شق في يسار

الجذع . والأحشاء كانت تحفظ أيضاً في أوعية خاصة داخل المقبرة .

وكان القلب يحفظ في حجرة خاصة ، ذلك لأن قدماء المصريين كانوا يؤمنون بأن الإله أوزيريس يقوم بوزن القلب في المحاكمة النهائية للميت . وكانوا يضعون في مكان القلب داخل جوف الميت الجعران المقدس ، وهو نوع من الخنافس كانوا يقدسونه .

ورفع أحشاء الميت من جسده ، كان يرجع إلى سببين مختلفين . أولهما أنهم كانوا يعرفون أن الأحشاء هي أول ما يتحلل في الجسم وثانيهما ينصب على المعنى الرمزي لهذا الإجراء . فالأعضاء والأحشاء هي مصدر الإحساس بالجوع والعطش عند الإنسان ، وهي مشاعر لم يكن يسمح للميت بممارستها في رحلته إلى العالم السفلي . وقد ظهر تقليد نزع الأحشاء والأعضاء من جوف المتوفى عند التحنيط ، ابتداء من الأسرة الثانية عشرة .

إكليل على حاجب الشمس

أصبح الجسد عارياً من كل ما حوله من لفائف وأربطة ، وبقيت مشكلة فك لفائف الرأس . كان دكتور ديري يأمل في أن يكشف هذه اللفائف بحيث يحصل على وجه سليم لفرعون . في البداية رفعت اللفائف الخارجية فظهر اكليل ذهبي يحيط برأس الملك . كان على درجة كبيرة من الجمال ودقة الصناعة . وقد جرى بحث طويل حول وظيفة ذلك الإكليل الذهبي ، وأجمع الباحثون أن له وظيفة أبعد من مجرد تجميل رأس فرعون الميت . فقد ورد في إحدى ورقات البردى المعتمدة عشر تراتيل في تمجيد هذا الإكليل ، جاء فيها «هذا الذي يظهر مخيفاً على حاجب

الشمس الإله ، وعلى حاجب الملك الأرضي ، يجلب الخراب على أعدائهما ».

ومن المعروف أن قدماء المصريين كانوا يولون الأكاليل اهتماماً خاصاً ، مما يرجح إيمانهم بالقوى السحرية لهذه الأكاليل . كما أن الأفعى التي كانت تظهر على الإكليل الذي يضعه فرعون حول رأسه ، من المفترض أن لها القوة على « تحطيم الأعداء » . لكن ما هي طبيعة هذه القوة ؟ هل يمكن أن يكون الإكليل مصدراً لنوع من الإشعاع ؟ وهل لهذا الإشعاع صلة بتعدد حالات الوفاة بين الذين شاركوا في اكتشاف قبر توت عنخ آمون ؟ خصوصاً لأن توت عنخ آمون هو الوحيد الذي وجد ذلك الإكليل على رأسه عند فتح المقبرة .

كان الحرص شديداً عندما وصل العمل إلى رأس المومياء . وفي هذا يقول هيوارد كارتر :

« عملية إزاحة البقية الباقية من اللفائف التي كانت فوق وجه الملك ، كانت تحتاج إلى أكبر قدر من الحرص ، بالنسبة لحالة التضخم الشديد .. كانت هناك دائماً احتمالات تخريب معالم الوجه الهشة . وكنا جميعاً ندرك الأهمية الخاصة والمسؤولية الكبيرة التي نواجهها في عملنا . وباستخدام فرشاة ناعمة من وبر السمور جرى إزاحة بقايا النسيج المتحلل من فوق الوجه ، فانكشفت التقاسيم الوديعة للملك الصغير ..

ووفقاً لتقرير التشريح الرسمي الذي كتبه دكتور ديري :

« كانت السدادتان اللتان تملآ فتحتي الأنف من نسيج ملفوف مغموس في الراتنج .. كانت العينان مفتوحتين قليلاً ، وقد ظهر أنهما لم تمسا بأي شكل من الأشكال . كانت الرموش طويلة جداً . وقد تفلطح الجزء

الغضروفي من الأنف قليلاً تحت ضغط اللفائف . الشفة العليا كانت مرتفعة قليلاً ، كاشفة عن أسنان أمامية كبيرة . وكانت الأذنان دقيقتين لهما شكل جميل . وحلمة كل أذن كانت بها فتحة دائرية قطرها حوالى ٧ ملليمترات . وعلى العموم كان لون الجلد رمادياً ، وكان يبدو هشاً مشققاً . أما فراغ الجمجمة فقد كان خالياً إلا من بعض المواد الراتنجية ، التي سكبت في الرأس من خلال فتحتي الأنف ، بعد أن تم سحب المخ من الجمجمة عن نفس هذا الطريق» .

المفاجأة الكبرى

إلا أن الإثارة الكبرى في ذلك اليوم ، حدثت عندما اكتشف دكتور دوجلاس ديري تلك الإصابة التي في الخد الأيسر لتوت عنخ آمون ، والتي قال عنها في تقريره :

«على الخد الأيسر ، بالضبط أمام حلمة الأذن ، ظهرت آثار ارتطام وتهتك دائرية . وكان الجلد في مكان هذا الأثر يشبه الجلد الأجدب ، ويتغير لون الجلد عند محيط ذلك الأثر حيث الحواف المرتفعة للجلد . ولم يكن من الممكن الإدلاء بتفسير لهذه الإصابة أو سببها» .

الأسرار المتصلة بهذه الإصابة الغريبة في وجه مومياء توت عنخ آمون لم تجد تفسيراً لها إلا بعد أربعين عاماً من ذلك التاريخ ! ..

ويرجع الفضل في كشف ذلك اللغز إلى أستاذ التشريح بجامعة ليفربول ، دكتور رونالد هاريسون الذي قام باختبار المومياء . وكانت وقت اختباره لها قد نقلت إلى مكانها الأصلي في المقبرة بوادي الملوك . حمل دكتور

هاريسون معه إلى داخل المقبرة جهاز أشعة سينية خاصاً يسهل نقله . ورغم أن المومياء كانت قد خضعت لفحوص سابقة بالأشعة السينية ، إلا أن جهد دكتور هاريسون كان الجهد الأكمل في هذا السبيل .

وصل دكتور هاريسون إلى التشخيص التالي بعد أن التقط ٥٠ صورة بالأشعة السينية للمومياء :

«لقد مات الملك توت عنخ آمون ميتة عنيفة . الجرح الذي في الجانب الأيسر من الجمجمة جاء نتيجة لسقطة أو لطمة . والسبب الحقيقي للوفاة جلطة دموية تحت غشاء المخ . وهذا يحسم التخمينات السابقة لسبب الوفاة المبكرة لفرعون ، والتي تعددت تشخيصات العلماء عنها ، فمن قائل إن الوفاة جاءت نتيجة لسرطان المخ ، أو الالتهاب الرئوي ، أو التهاب المفاصل» .

كما استطاع مساعد دكتور هاريسون ، دكتور كوتولي أن يحدد فصيلة دم توت عنخ آمون باستخدام ما يصل إلى حجم رأس الدبوس من نسيج المومياء . ووجد أن فصيلة الملك الراحل من الفصائل النادرة ، مما يوحي بأنه قد جاء من سلالة ارستقراطية نقية . ودراسة فصيلة دم توت عنخ آمون قادت إلى حقيقة أخرى ، كان كارتر قد أشار إلى جانب منها قبل ذلك . فقد سجل كارتر ما لاحظه من شبه بين وجه توت عنخ أمون ، ووجه والد زوجته أخناتون . ولم يكن كارتر يعرف أن فصيلة دم الملكين واحدة . ونتيجة لعدم معرفة أصل توت عنخ آمون ، فقد استنتج علماء الآثار انه ابن غير شرعي لاخناتون ، الذي لم تنجب له زوجته نفرتيتي إلا بناتاً . وهكذا ، فان توت عنخ آمون قد تزوج احدى بنات اخناتون ، اخته من أبيه . وقد رجح العلماء أن عمره في ذلك الحين كان ١٢ سنة .

هذه الاستنتاجات والتخمينات التي كانت شائعة عام ١٩٢٥ ، استطاع هاريسون وكوتولي أن يقدما البرهان العلمي عليها عام ١٩٥٩ .

من جديد لعنة الفراعنة

عندما اختبر الفريد لوكاس المومياء ، وكان عام ١٩٢٥ رئيساً للقسم الكيميائي بمصلحة الآثار المصرية ، وصل إلى بعض النتائج التي قد تلقي ضوءاً على أسطورة لعنة الفراعنة . فقد كتب ، على سبيل المثال ، عن الفطريات التي وجدها بالمقبرة ، وعن أثرها الكيميائي على الجسيمات العضوية بنسيج جسم وعظام المومياء ، وأعلن في نفس الوقت عن خلو المقبرة من الجراثيم .

ونتائج دراسة لوكاس حول الفطر الكثيف النامي على حوائط المقبرة ، والحشرات الكثيرة الميتة التي وجدت على أرض المقبرة ، اتخذت أساساً يساند النظرية القائلة بأن لعنة الفراعنة مصدرها وجود نوع من السموم في المقبرة يؤثر على كل من يدخلها .

والذي بقي بلا تفسير ، هو وجود نبات لا ينمو في مصر داخل المقبرة ، وقد وجد أيضاً في مقابر أخرى لفراعنة آخرين . وهو النبات الذي يطلق عليه اسم تفاح الجن أو اليبروح «ماندريك» ، وهو نبات سام يدخل في في تركيب بعض الأدوية . كما وجدت رسوم لهذا النبات في مقابر الأسرة الثامنة عشرة . وأقرب البلاد التي ينمو فيها هذا النبات لمصر هي فلسطين . وقد عرف العرب هذا النبات ، وعرفوا أن الجرعات القليلة منه ، تعمل كمنشط ومثير للجسم ، لكن تناول جرعات كبيرة منه يؤدي إلى الغيبوبة

وإلى آثار أشبه بآثار الهلوسة .

ويعتقد الأستاذ ثيوبري أن فاكهة تفاح الجن الموجودة في مقابر الفراعنة ، في رسوم هذه المقابر ، تطابق الفاكهة المعروفة باسم «ديدي» والتي تسمى بالعبرية «دوديم» والتي نجد لها ذكراً متكرراً في نصوص العهد الجديد . وقد استخدمت كمخدر في جزيرة فيلة بالقرب من أسوان .

المهم ان الاختبارات الكيميائية والتشريحية التي خضعت لها مومياء توت عنخ آمون في ذلك الحين : لم تلق الأضواء اللازمة على المشاكل الأثرية وكان الأفضل لصالح الحركة العلمية أن يتم اكتشاف هذه المقبرة في الخمسينات أو الستينات من هذا القرن . ويدعم هذا الرأي تلك النتائج التي توصل إليها دكتور هاريسون . فمع انه كان يتعامل مع مومياء شبه محطمة ، إلا أن النتائج التي توصل إليها كانت لها دلالات علمية أعظم بكثير من مجموع النتائج التي توصل إليها جميع العلماء الآخرين منذ اكتشاف المقبرة .

ومرة أخرى .. كانت لعملية تشريح مومياء توت عنخ آمون في معهد التشريح بجامعة القاهرة في ١١ نوفمبر ١٩٢٥ نتائجها المأساوية فقد مات الكيميائي ألفريد لوكاس في أعقاب ذلك نتيجة لنوبة قلبية . وبعد قليل ، توفي دكتور دوجلاس ديري نتيجة لهبوط في الجهاز الدوري .

كان لحادث وفاة العالمين الكبيرين في أعقاب تشريحهما للمومياء أثره في استعادة ترديد الحديث عن لعنة الفراعنة في الأوساط العلمية العالمية .. وتواصل الحديث من جديد عن القوى السحرية التي تنبعث من مومياء عمرها آلاف السنين ! ..

أرملة توت الشّجاعة

أي نوع من الرجال كان توت عنخ آمون ؟ .. لماذا سلم قبره من عبث العابثين ذلك الزمن الطويل ؟ وهل هذا هو السبب في أن قوة اللعنة الصادرة عن هذه المقبرة جاءت أقوى من تلك التي صدرت عن المقابر الأخرى لغيره من الفراعنة ؟ . عندما يتكلم هيوارد كارتر عن ذلك الفرعون الشاب ، يقول إن أهم وقائع حياته انحصرت في وفاته ودفنه ! .. إلا أن هذا الحكم السطحي على توت عنخ آمون لا يقبله باقي علماء الآثار . فإذا لم يكن توت عنخ آمون ترساً كبيراً في ساعة التاريخ المصري القديم ، فإن التروس الصغيرة تكون لها أيضاً أهميتها .

وحتى نفهم الدور الذي لعبه توت عنخ آمون ، لا بد من معرفة بعض الحقائق الأساسية عن عادات الزواج عند قدماء المصريين .

رغم أن تعدد الزوجات كان أمراً شائعاً في مصر القديمة ، إلا أنه لم يكن قانونياً . وعن تعدد الزوجات والعلاقة بين مختلف الزوجات اللائي في عصمة رجل واحد ، يورد الباحثان أدولف ايرمان وهيرمان رانك جانباً من قصة الشريف أميني وزوجتيه . فقد كان أميني أحد شرفاء الوجه القبلي ، وكانت له زوجتان : بنيت وهينوت . وكان الاحترام متبادلاً بين الزوجتين ، إلى حد

أن بنيت سمت واحدة من بناتها هينوت ، كما أن هينوت سمت واحدة من بناتها بنيت .

الرجل في مصر القديمة كان بإمكانه أن يتزوج من عدة زوجات ، فلم يكن هناك قانون خاص يحدد عدد الزيجات المسموحة للرجل . وعادة كان الذكر يتزوج عندما يبلغ عمره ١٥ سنة تقريباً أما الأنثى فقد كان عمرها عند الزواج يتراوح بين ١٢ ، ١٣ سنة عادة . وكان الزواج يتم بمقتضى نوع من العقد ، يتضمن فقرة تتحدث عن «فترة عام من الإطعام» . وهذا يشير إلى فترة سنة يتحمل فيها الرجل تكاليف طعام زوجته ، وينظر إليها كفترة اختبار للزوجة ، يكون من حق الزوج بعدها أن يفصم العلاقة دون أي التزامات . وبالإضافة إلى الزوجات ، كانت السراري أو المحظيات ، ولم تكن لهن أو لأولادهن أية حقوق .

والاحتفاظ بنقاء العرق أو الدم أو السلالة كان أمراً هاماً عند قدماء المصريين ، لذا فقد شاع زواج الأخوة من الأخوات ، وخاصة بين الطبقات الحاكمة . والأساطير الفرعونية تقول إن أوزيريس تزوج من أخته ايزيس . ولعل هذا هو السر في أن تعبير « اختي » في اللغة الفرعونية كان له معنى « حبيبتي » أو « معشوقتي » . وعادة كانت زوجة واحدة من بين الزوجات ، هي التي تعتبر « سيدة البيت » ، أو الزوجة الشرعية .

وقد تعقدت تقاليد الزواج والروابط العائلية في عهد الأسرتين ١٧ ، ١٨ . وبدأت الأسرة ١٦ بالملك «سكينجين ري» الذي تزوج «أحوتب» ثم تزوج بعد ذلك من أخته «أحميس نفرتيري» . وهذا الملك هو والد أحمس الذي طرد الهكسوس من مصر . ومرة ثانية تزوج تحتمس ابن

أحمس من أحميس ، التي هي ابنة أحميس نفرتيري ، وهو أيضاً من زواج المحارم .

زوجة في التاسعة من عمرها

وقد كان لاخناتون ثلاث بنات ، تزوجت كبراهن في حياة أخناتون من ساخير الذي شارك أخناتون في عرشه لزمن قصير ، ومات قبل اخناتون . أما الابنة الوسطى فقد ماتت وهي صغيرة . وصغرى البنات التي كانت تسمى انخسينباتن فقد تزوجت توت عنخ آمون «الذي كان يسمى في ذلك الوقت توت عنخ آتون» . ولدت هذه الابنة الثالثة في السنة الثامنة من حكم أخناتون وكانت في التاسعة من عمرها عندما تزوجت ، وهي في سن صغيرة حتى بمقاييس قدماء المصريين . نتيجة لذلك الزواج المبكر أجهضت مرتين ، مما حرمها من إنجاب ولي العهد المطلوب .

في ذلك الوقت كان الكاهن آي هو الكاهن الأكبر في بلاط أخناتون بتل العمارنة ، كما أن زوجته تيجي كانت تعمل وصيفة لدى نفرتيتي زوجة أخناتون . وقد استطاع الكاهن آي أن يجمع بين يديه كل خيوط السلطة ، لهذا سعى لأن يخلف أخناتون على العرش ملك ضعيف . كان الشاب توت عنخ آمون خير من ينطبق عليه ذلك الشرط بشكل كامل .

ولعل أهم إنجازات توت عنخ آمون أثناء ملكه هو تخليه عن ديانة التوحيد وعبادة الشمس التي أعلنها والد زوجته أخناتون . وقد قاد هذا إلى إهمال تل العمارنة ، والعودة إلى عبادة آمون في طيبة . في ذلك الوقت تغير اسم الملك من توت عنخ اتون إلى توت عنخ آمون ، كما تغير اسم زوجته إلى

انحوسنامون .

وكما رأينا فيما سبق نتيجة لتشريح المومياء ، مات توت عنخ آمون نتيجة جلطة في المخ سببها لطمة قوية على الرأس . هكذا أصبحت انحوسنامون أرملة وهي في الخامسة عشرة من عمرها ، وبلا وريث للعرش . ونجحت خطة الكاهن الأكبر آي .

كانت الأرملة الصغيرة تعرف أن عليها اختيار زوج جديد لها يجلس معها على العرش قبل الموعد المحدد لدفن زوجها الراحل ، أي خلال سبعين يوماً (وهو الوقت الذي كانت تستغرقه عمليات تحنيط الجثمان) . لم تعمد الملكة إلى اختيار زوج لها من أبناء مصر ، أو هي لم تستطع ذلك نتيجة لنفوذ الكاهن الأكبر ، فاتجهت إلى ملك الحيثيين شابيلولياما أرسلت تقول له :

« لقد مات زوجي ، ولم أرزق منه بابن . ولقد عرفت أن لديك أبناء كباراً . ارسل لي واحداً من أبنائك ، لاتخذ منه زوجاً لي ، ذلك لأنني لا أريد الزواج من أحد رعاياي » .

كان الأمل ضعيفاً في أن تنجح خطة الأرملة الصغيرة . فهذا الخطاب ، حمله رسول خاص استغرق وصوله إلى آسيا الصغرى حيث يعيش الحيثيون ١٤ يوماً . ووصلها الرد بعد شهر يحمل شكوك ملك الحيثيين في صدق نواياها . قال :

« كيف تثبتين لي انك لا تجدين أميراً من بلادك تتزوجينه ؟ هل تعمدين إلى خديعتي ؟ هل تريدين حرمان أحد أبنائي من أن يخلفني على عرش بلادي ؟؟ » .

عادت الملكة ، فأرسلت رداً على هذه الرسالة المتشككة ، تحاول تأكيد صدق موقفها وتعد ملك الحيثيين بأن ابنه سيصبح ملكاً على مصر . اقتنع ملك الحيثيين بصدق نوايا ملكة مصر ، فأرسل ابنه زانانزا إلى طيبة . وكان على الأخير أن يسرع إلى الأرملة الصغيرة ، قبل فوات المهلة المحددة .

مؤامرة على العرش

في مصر ، كان هناك رجلان يطمعان في العرش ، ويتمنيان عدم وصول الأمير الحيثي ، أحدهما كان الكاهن الأكبر آي ، الذي كان يؤمن أن الأمير الحيثي لن يستطيع أن يصل إلى طيبة قبل مرور مهلة السبعين يوماً . أما الآخر الذي كان يعلم بخطة الملكة ، فهو القائد العسكري الشاب حور محب ، الذي لم يكن يتمتع بنفس الثقة التي كانت لدى الكاهن الأكبر في تأخر الأمير زانانزا عن موعده ، فأرسل حور محب من يكمن للأمير في طريقه إلى مصر ويقتله .

وإذا كان حورمحب قد رصد طاقته لاغتيال الأمير الحيثي ، فإن الكاهن آي قد صرف همه إلى وضع الخطة التي توصله إلى العرش . وفي اليوم السابق لجنازة توت عنخ آمون ، أعلن نفسه وريثاً للعرش ، وهكذا تولى مراسم الجنازة في اليوم التالي باعتباره فرعون الذي يشارك الأرملة انحوسنامون عرش مصر .

لكن آي مات بعد هذا بأربع سنوات ، واستطاع حورمحب أن يصل إلى العرش بعد أن قضى على الملكة الشابة التعسة .

شعر حور محب أن الميدان قد خلا له ، خاصة وأنه كان يتمتع بثقة

كهنة آمون ، فتحول إلى ديكتاتور . وتفرغ لتحطيم تماثيل من سبقه من الفراعنة وتخريب صورهم ونقوش أسمائهم . أوفد عماله إلى كل مكان بمصر ، يمحون اسم توت عنخ آمون من كل مكان نقش عليه . أخذ حجارة معابد تل العمارنة ليصنع منها أساساً لثلاثة إهرامات بالقرب من معبد آمون بطيبة . فعل كل ما في طاقته ليحفر اسمه عميقاً في سجل التاريخ .. حتى القبور ، قبور السالفين ، لم تسلم من يده المخربة . خرب الكثير من قبور أتباع توت عنخ امون وقبر الكاهن آي . أراد أن يمحو من الوجود كل ما يذكر الناس بحكم توت عنخ آمون أو الكاهن الأكبر آي .

يقول عالم المصريات الفرنسي كريستيان ديروش نوبلكورت وهو يؤرخ لتوت عنخ آمون « كل ما فعله حور محب كان مدروساً بعناية فائقة . ورغم وضوح منطق تصرفاته ، فقد ارتكب غلطة وحيدة . لقد فعل كل ما من شأنه أن يطمس تاريخ سلفه توت عنخ آمون ، ومع هذا لم يهدم قبره .. » .

القوى السحرية للمقبرة

السؤال الذي حير علماء المصريات لزمن طويل : لماذا امتنع حورمحب عن تخريب قبر توت عنخ آمون ، رغم كل ما فعله لطمس ذكراه ورغم أنه قد خرب قبور الكثير ؟ يقول علماء المصريات : لا بد أن حورمحب كان يعرف الكثير عن الكنوز المتراكمة في مقبرة توت عنخ آمون ، فكيف غفل عن نهبها ، وهو الذي كان يغتصب كل ما يقع تحت يده من ثروات ؟ لقد كان الكهنة في صفه ، فلم يكن من المحتمل أن يقفوا في طريقه إذا أقدم على نهب المقبرة . لماذا اذن تهيب حورمحب الاعتداء على المقبرة ؟

يحاول علماء المصريات أن يقدموا إجابة عن تساؤلهم بقولهم : قبل ان يغلق الكهنة مقبرة توت عنخ آمون ، قاموا بتأمين المدفن بالاعتماد على قوى سرية غامضة لا يمكن التغلب عليها .. ولا شك أن حورمحب كان يخاف أن تصيبه تلك القوى بأذاها .

لقد اكتسب الكهنة مكانتهم واحترامهم الكبير في المجتمع المصري القديم ، نتيجة لمعرفتهم الغامضة وعلمهم السري . وقد كانوا الصفوة العقلية في المجتمع ، التي تتجمع لديها المعارف التي يحرم منها أفراد الشعب . فالمعرفة هي مصدر القوة ، حتى منذ خمسة آلاف سنة .

كان الكاهن بالنسبة للعامة ساحراً ، يعلم كل شيء ويستطيع أن يفعل أي شيء . وهكذا شكل طبقة خاصة لا تشرك أحداً في معارفها . كانوا هم الذين يبتدعون آلهة قدماء المصريين ، يعلنون ميلاد الآلهة ووفاتها ، يدمجون إلهين معاً ويطلقون على الإله الجديد اسماً جديداً .

ولكي يدعم الكهنة مركزهم ، كانوا يسعون إلى مضاعفة معارفهم وتنميتها .. تلك المعارف التي لم تكن مصدر دهشة للمصريين القدماء فقط ، بل ما زالت حتى اليوم تدهشنا . وقد وصلتنا المعلومات عن أوضاع الطب والسحر في مصر القديمة من سبع أوراق بردى أساسية أكبرها وأشهرها بردية ايبيرز التي تعتبر مرجعاً طبياً كلاسيكياً كاملاً .

إحدى البرديات تتكلم عن «القوى الإلهية» التي تستقر في مدينة بوباستس «مدينة الموتى» . وكتاب الموتى الديموطيقي يشير أيضاً إلى هذه القوى ، ويتحدث عن «القوى السماوية لمدينة بوباستس التي تصعد من سراديبها» . وترجمة اسم قاضي الموتى في ذلك الكتاب هو «البابستي الذي يصعد من

السراديب ..» .

هذه القوى التي يكثر الكلام عنها ، لم نسمع أنها هبت لنجدة أحد من الأحياء . لماذا لا يمكن أن يستفيد منها سوى الآلهة أو الأموات ؟ أبسط تفسير لهذا هو أن هذه القوى ذات طبيعة سامة ، يمكن أن تضر بالأحياء بل انها وضعت في وجه الأحياء لحماية الموتى . إذا افترضنا ، من هذا ، أن الفراعنة كانوا يعتمدون في حماية مقابرهم على مثل هذه القوى .. الا يقودنا هذا مباشرة إلى ظاهرة لعنة الفراعنة .

صورة الإله على الكف

واليوم ليست لدينا أية معلومات عن المصدر الذي كان الأطباء القدماء يستمدون منه معارفهم وفنونهم ، مما يؤكد انها كانت من المعارف السحرية للغاية التي يتم نقلها إلى الآخرين بعد اتخاذ كافة الاحتياطات التي تمنع تسربها للعامة . فنحن لم نسمع عن مدارس للطب الا في العهد الأخير من حكم الفراعنة . مثل المدرسة التي افتتحت في سايس خلال حكم داريوس الأول حوالي سنة ٥٠٠ قبل الميلاد ، لكنها في تعليمها لا تشترك في شيء مع الممارسات الطبية الفرعونية .

ومصر لم تعرف المستشفيات طوال سنوات المملكة القديمة وحتى نهاية المملكة الحديثة فنظام المستشفيات لا يتفق مع الطبيعة السحرية للطب المصري القديم . كان الطبيب أو الساحر يستدعى إلى البيت ، فيدخله في موكب خاص له مراسيمه الخاصة . ذلك أن الطبيب كان ينظر إليه باعتباره صانع المعجزات القادر على كل شيء .

ولقد عرف أطباء مصر القديمة ثلاث طرق للعلاج : الجراحة والعقاقير والسحر . وكان الطب الجراحي يتضمن إجراء العمليات الجراحية . مثل تجبير العظام والمفاصل ، وربط الجروح ، مع معرفة باسس التعقيم والتطهير ، العظام المكسورة كانت توضع في جبائر ، وكانت التغذية الصناعية تتم بواسطة أنابيب من الغاب أو البوص مغلفة بالحرير . بل إنهم عرفوا استخدام الكوبري للأسنان . كانت الأسنان القديمة توضع في الفتحة بين السنتين السليمتين ، وتثبت بسلك من الذهب .

أما العلاج بالعقاقير ، فقد كان يتضمن وصف العصير ، والمراهم ، والمساحيق ، بل وتضمن علاجهم استخدام اللبوس أو التحميلة وكانت توصف للمريض أيضاً بعض الأعشاب ، يحرقها ويستنشق دخانها . وكانت تعليمات تعاطي الأقراص والعقاقير التي يجهزها الطبيب المصري القديم ، لا تختلف كثيراً عن التعليمات الصيدلية المعاصرة ، «يؤخذ مرتين يومياً» أو «يؤخذ قبل النوم» .

أما السحر فقد كان عنصراً أساسياً في الممارسات الطبية بمصر القديمة ، حتى بالنسبة للعلاج بالجراحة أو العقاقير . وقد توصل بعض الدارسين إلى كشف جانب من الخدع التي أرست في وعي الناس الاعتقاد الراسخ في السحر ، وعرفوا أساسها الطبي على سبيل المثال ، يرسم الطبيب القديم أو الساحر صورة أحد الآلهة على يد المريض الذي يعاني من الألم أو التسمم ، ثم يطلب من المريض أن يلعق الرسم . صورة الإله هذه كانت في الغالب ترسم بمحلول أحد العقاقير المناسبة ، فإذا شفي المريض نتيجة لتعاطيه ذلك العقار ، فالفضل في ذلك يعود إلى الإله الذي رسمت صورته على اليد .

كسر الجرار الفخارية

في مصر القديمة ، كانت هناك هوة واسعة في التعليم ، صفوة ثقافية واجتماعية محدودة ، تقابلها جماهير واسعة أمية غير قابلة للتعامل مع الفكر العلمي ، وتميل في استجابتها إلى السحر . لذلك فان مكتبات الفراعنة كانت تضم كتب السحر التي كان يطلق عليها كتب الحكمة ، جنباً إلى جنب مع المراجع التقليدية والكتب الطبية .

يقول الباحث أدولف ايرمان انه حتى المتعلمون من قدماء المصريين كانوا يكنون كل تقديس وتبجيل لمؤلفي كتب الحكمة هذه ، وينظرون إليهم باعتبارهم «آلهة أرضيين» ، أو «آلهة حكمة» : والمراجع السحرية كانت توجد في جدار بالقرب من مومياء الميت ، وقد زعم أحد القسس أنه عثر على مرجع سحري يضم العديد من الأسرار في قبر أحد الحيوانات ! . وقدماء المصريين كانوا لا يطلقون لقب كاهن إلا على من يحفظ هذه الكتب السرية المقدسة عن ظهر قلب .

والحدود بين السحر والخرافة من ناحية ، والمعرفة العلمية من ناحية أخرى تكون في الأغلب مائعة ومختلطة . ففي المملكة الوسيطة كان يصدر تقويم شهري ، يشير إلى اليوم الثامن من الشهر باعتباره أفضل الأيام ، واليوم التاسع باعتباره أسوأها ، واليوم الثالث باعتباره يوماً متعادلاً بين الحدين . وفكرة أن بعض الأيام تكون سعيدة والأخرى غير سعيدة ، هي أقرب ما تكون من النظرية الحديثة عن الإيقاع الحيوي للإنسان «البيوريزم» .

وإذا كانت نظرية الإيقاع الحيوي «بيوريزم» لم تقبلها الأوساط العلمية

بشكل كامل حتى الآن ، فإن المعارف السحرية كانت تدرس لصغار الكهنة باعتبارها من الحقائق الثابتة . فأوراق البردى التي ترجع إلى المملكة الحديثة ، تقول للدارسين أن اليوم يكون سعيداً أو سيئاً ، وفقاً لما حدث في اليوم المماثل من السنوات السابقة للآلهة .

ومع هذا ، فرسم الخطوط الفاصلة ليس سهلاً .. ليس كل ما يتصل بما وراء الطبيعة يمكن أن ينسب إلى السحر . وضع الطعام في مقابر الأموات ليس من السحر في شيء ، كذلك رسم الرسوم التي تصور وقائع الحياة اليومية على جدران المقبرة من الداخل ، وأيضاً تلاوة التراتيل ضمن مراسم الدفن . لكن السحرة هم الذين أساؤوا استغلال هذه المعتقدات الشعبية ، حتى يكتسبوا بذلك موضعاً متفوقاً ، يوفر لهم المكانة والثروة .

ونحن نجد عالماً من السحر في كل منعطف من منعطفات الحياة المصرية القديمة . فقد كان السحرة يتحكمون في الأمطار والرياح ، ويحمون الناس من الأسد في الصحراء أو التمساح في النيل . كانت هناك رقية خاصة تقال كل صباح لحماية فرعون من أعدائه .

وقد كشفت شقفة من الفخار وجدت في طيبة ، إلى أي مدى كان تأثير هذه الرقى والتلاوات السحرية حتى في بداية المملكة الوسطى ، حوالي ألف سنة قبل الميلاد . كانت هذه الشقفة هي نتاج لطقس من الطقوس المرعية يسمى «تكسير الأواني» . لقد طلب أحد فراعنة الأسرة الحادية عشرة كتابة أسماء أعدائه وحفرها على عدة جرار وأوان فخارية . قائمة أسماء الأعداء تضمنت «باكواي حاكم أوباتس وجميع أقاربه ، وكل سكان كوش وميجيروشاءات ، وكذلك كل حلفائهم الأقوياء وأصدقائهم .

وأولئك الذين سيصبحون من أعدائنا ، والذين سيتآمرون علينا ، والذين سيحاربوننا ، والذين يتكلمون عن نية محاربتنا » . لقد تضمنت الأسماء المنحوتة على الفخار اسم حاكم ليبيا وحاكم فلسطين .. واسم أحد كبار مستشاري فرعون نفسه ! .. كتبت أسماء هؤلاء جميعاً ، وسجلت عليهم لعنة الموت . وكان الاعتقاد السائد أن أصحاب هذه الأسماء يموتون في اللحظة التي تتحطم فيها الجرار المكتوبة عليها الأسماء .

العلم بعد السحر

شيئاً فشيئاً اشتد الضغط على السحرة ، وتصاعدت الأصوات تطالبهم بأن تتحقق نتائج سحرهم . فقد اكتشف الناس بعد زمن ، ان اللعنات السحرية التي تكلف الكثير من المال ومتطلبات السحر المجهدة لميزانيتهم لا تأتي بالنتائج . ومع ارتفاع معدلات التعليم بين الناس البسطاء في مصر القديمة ، أصبحت لعنات السحرة تخدش الآذان بعنفها ، وارتفاع صرخات التهديد فيها . ونحن نجد في النصوص المنقوشة داخل بعض الاهرامات مثل هذه اللعنة :

«أنت يا آلهة الأفق ، فكما تتمنى لاتوم الحياة ، وكما تطهر نفسك بالزيت ، وكما ترتدي الملابس وتتناول طعامك ، فاخذ بيده أيضاً (أي الميت) ، وضعه في حقول الطعام» .

وكما نرى من صياغة اللعنة ، فإنها توحي بضعف الإيمان ، وقلة الثقة بالنفس ، وتبدي الكثير من الاستفزاز للإله . إنها صرخة ساحر يطلب النجدة ، ونحن نرى يأسه أكثر وضوحاً في الشق الباقي من اللعنة :

«ولكن .. إذا لم تقده إلى السفينة ، فانه (أي الميت) سيمزق خصل شعرك المجعدة ، كما تمزق البراعم على شاطئ البحيرة .. » .

هكذا ، لا يبدو غريباً على كاهن يحمل كل هذه المرارة وكل هذا الاستياء لآلهته ، ان يتجه إلى العلم ليساعده في استعادة مكانته ولا شك أن التعرف على طبيعة علم هؤلاء الكهنة ، سيلقي ضوءاً على ما نطلق عليه اسم «لعنة الفراعنة» .

سلاحُ الجراثيم

في ٣ نوفمبر ١٩٦٢ ، عقد دكتور عز الدين طه ، الأستاذ بجامعة القاهرة مؤتمراً صحفياً ، الأمر الذي لا يلجأ إليه عادة رجال العلم الأكاديميون ، لا في مصر ولا في خارجها . لكن أستاذ علم الحيوان كانت لديه أنباء علمية مثيرة يريد أن يكشف عنها . لقد أعلن الأستاذ الجامعي أنه قد توصل إلى سر لعنة الفراعنة ، أو هو على الأقل قد وصل إلى أحد أسبابها .

على مدى زمن طويل ، قام دكتور عز الدين طه بالكشف الطبي على عدد من رجال الآثار والعاملين في متحف الآثار المصرية القديمة ، واكتشف أن الكثير منهم كان يعاني من فطر معين يسبب التهاب الجهاز التنفسي . وكان الأثريون قد لاحظوا منذ وقت طويل تلك الأعراض الغريبة ، وأطلقوا عليها اسم «الكحة القبطية» ، والتي كانت تظهر على شكل طفح جلدي ، مع إحساس بصعوبة التنفس ، لكن الأمر لم يحظ باهتمام كبير ، رغم أن تلك الأعراض كانت تظهر فقط على أولئك الذين يتعاملون بشكل مكثف مع أوراق البردى المصرية القديمة .

وقد أوضح دكتور طه خلال مؤتمره الصحفي بمعهد الميكروبولوجي بجامعة القاهرة ، وجود سلسلة من العناصر المعدية الخطيرة ، من بينها الفطر الذي يطلق عليه «اسبيرجيللاس نيجر» . قال دكتور طه إن ذلك الفطر

قادر على مواصلة البقاء في المومياءات وحجرات الدفن والاهرامات على مدى ثلاثة أو أربعة آلاف سنة .

أعلن دكتور عز الدين طه في مؤتمره الصحفي : هذا الاكتشاف قد وضع نهاية للخرافات التي سادت عن موت بعض المكتشفين الذين عملوا في المقابر القديمة ، نتيجة لنوع من اللعنات . ذلك لأنهم كانوا ضحايا مرض لحقهم أثناء عملهم . قد يكون البعض ما زال عند إيمانه بأن لعنة الفراعنة يمكن أن ترجع إلى بعض القوى الخارقة للطبيعة ، لكن هذا مجاله قصص «الجنيات الخرافية» . وختم كلامه قائلاً إن المضادات الحيوية قادرة على إبطال مفعول لعنة الفراعنة .

لكن دكتور عز الدين طه عاد فاستدرك قائلاً إن اكتشافاته التي توصل إليها تحت عدسات الميكروسكوب الالكتروني ، قد لا تكون الحل الكامل للغز لعنة الفراعنة . واعترف انه من الممكن ألا تكون هذه العدوى ، السبب الوحيد لوفاة العديد من الأثريين والعاملين في مجال الآثار .

لقد كان من الممكن أن تؤدي بحوث دكتور عز الدين طه إلى المزيد من النتائج العلمية المفيدة ، لولا أن الأستاذ الباحث نفسه وقع ضحية للعنة الفراعنة التي أنكرها ، بعد المؤتمر الذي عقده بوقت قصير .

حدث ذلك في الطريق الصحراوي بين القاهرة والسويس . كان دكتور عز الدين طه يقود السيارة ومعه إثنان من العاملين تحت إشرافه ، يتجهون إلى السويس . على بعد ٧٠ كيلومتراً من القاهرة ، انحرفت سيارة دكتور عز الدين طه لتصطدم بسيارة قادمة من السويس . وقد توفي دكتور عز الدين طه ومن معه على الفور ، بينما كانت جروح ركاب السيارة الأخرى

خطيرة . لقد أثبت التشريح الذي أجري على جثمان الأستاذ الراحل ، أن سبب الحادث هبوط في القلب .

اللعنة .. والجراثيم

ولا شك ان إرجاع لعنة الفراعنة إلى الإصابة بعدوى جرثومة ما ، يلقى استحساناً بين من يحاولون كشف لغز لعنة الفراعنة من العلماء ، مما جعل الكثير منهم يميل إلى الأخذ بهذا التفسير .

في اكتوبر عام ١٩٥٦٠ ، قام دكتور جون ويلز ، العالم الجيولوجي بجنوب أفريقيا ، بالهبوط إلى مغارات الجبال الروديسية الممتدة تحت الأرض . لم يكن لديه ساعتها علم عن الخطر المميت الذي يتعرض له .

كان هدفه من هذه الزيارة هو اختبار الاستخدامات العملية الممكنة لفضلات الخفافيش . فقد كانت الفكرة السائدة انه بالإمكان الاستفادة من آلاف الأطنان من فضلات الخفافيش المتراكمة داخل المغارات كمخصب وسماد في الزراعة .

في أحد الكهوف التي تمتد ١٥٠ متراً تحت الأرض ، رأى دكتور ويلز مشهداً غريباً . ذات مرة ، تبين أن سقف الكهف الأسود عبارة عن خلية تتكون من عشرة آلاف خفاش ، تتراص متزاحمة ، ينحشر بعضها في البعض الآخر . فأسرع ويلز يغادر الكهف .

بعد هذا بعدة أيام ، شكا دكتور ويلز من عسر هضم ، وآلام في العضلات ، وحمى شديدة . أرجع التشخيص الطبي المبدئي هذه الأعراض إلى ذات الرئة أو الالتهاب البللوري . لكن العلاج المبني على ذلك التشخيص

لم يؤد إلى تحسن في حالته . وهكذا جرى نقل ويلز إلى مستشفى جيوفري في بورت اليزابيث .

عندما قام مدير المستشفى دكتور دين بالكشف على المريض ، تذكر أن الأطباء الأمريكيين قد اكتشفوا مؤخراً مرضاً شائعاً بين المستكشفين الذين يعملون في كهوف الانكا ببيرو . أرسل دين إلى أمريكا عينة دم من الجيولوجي المريض الذي كانت حالته قد ساءت في ذلك الوقت ، فجاءت نتيجة التحليل لتؤكد تشخيص دكتور دين . كان جون ويلز يعاني من المرض الذي يطلق عليه الاسم الطويل «هيستو بلازموسيس» . وهو مرض يتسبب فيه الفطر المعدي الذي ينمو بين فضلات الخفافيش وبعض المواد المتعفنة .

أنقذت المضادات الحيوية حياة العالم الجيولوجي ويلز . لكن دكتور دين بدأ يتساءل : ألا يحتمل أن يكون هذا المرض هو المسؤول عن الميتات المحيرة التي تتصل بمقابر الفراعنة ؟

مرض الانفاق

بينما كان الأطباء الأوروبيون يدرسون هذه الحالة ، تذكر مؤرخو الطب من بينهم الظواهر الغريبة المماثلة التي جاءت نتيجة لمرض شاع بين العاملين في بناء نفق سانت جوتار . وأدخلت في الاعتبار حالات مماثلة في بلجيكا وفرنسا ، أطلق عليها «أنيميا المعدّنين» . لقد ظهرت نفس الأعراض على عمال حفر الأنفاق وعمال المناجم ، الضعف والأنيميا . وقد مرت أوقات عانت فيها صناعة التعدين من كثرة العمال الذين يقعون صرعى «مرض

الأنفاق» . وكانت مستشفيات سويسرا تزدحم بضحايا ذلك المرض ، مما الجأ الأطباء إلى تحويل بعض الحالات إلى المستشفيات الإيطالية .

وأول إشارة لسبب المرض جاءت من طبيب سويسري اكتشف بيض الانكلستوما في فضلات الإنسان ، كما وجدت دودة الانكلستوما بكثرة في فضلات عمال المناجم . وعندما أجري مسح صحي شامل للعمال الصناعيين الألمان ، اكتشفت حالات عالية من الأنيميا .

فهناك غدتان سامتان بالقرب من رأس دودة الانكلستوما ، تفرزان مادة كاوية . وسموم هذه الغدد تصيب الجهاز الدوري للضحية من خلال الأوعية الدموية المعوية ، وتخرب كرات الدم الحمراء عن طريق إذابة ما بها من هيموجلوبين .

هذه الطفيليات قد تكون تفسيراً آخر للعنة الفراعنة . لكن هذا التفسير لا يشمل حالات الوفاة المتكررة التي أصابت علماء الآثار ، فرغم أن ديدان الانكلستوما تصيب الجسم بضعف شديد ، إلا أنه لم يسمع أنها أدت إلى الوفاة .

كليوباترة والزهرة المسمومة

الاحتمال كبير إذن في أن الأثريين قد أصيبوا بالطفيليات خلال عملهم الطويل تحت الأرض . لكن إذا أدخلنا في الاعتبار أن لعنة الفراعنة كان المقصود بها حماية مقابر الملوك فلا نتصور أن يعتمد في هذا على تلك الطفيليات . ومن ثم ، فالنظرية التي تكسب انصاراً في هذا المجال هي نظرية الاعتماد على السموم .

فالسموم قديمة قدم الجنس البشري . ومن المعروف أن مينا ، أول فرعون لمصر ، كان يزرع النباتات السامه حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ونحن نعرف أنه في عهود تالية استخدم قدماء المصريين الأفيون والشوكران والبنج الأسود والزرنيخ . بل انهم عرفوا حامض البروسيك الذي كان يستخدم في تنفيذ أحكام الإعدام عند الإغريق منذ ٢٥٠٠ سنة .

ومن المعروف أن كليوباترة كانت خبيرة في خلط السموم . وكانت تجرب سمومها بصفة منتظمة على الأسرى . وكان حبيبها مارك أنطونيو يخشى خبرتها تلك ، فلم يكن يأكل مما تقدمه إليه كليوباترة إلا إذا ما تذوق الطعام قبله شخص يثق به ، حتى يتأكد من خلو الطعام من أي سموم ، الأمر الذي كانت كليوباترة تعتبره إهانة لها .

وكان تصدي كليوباترة لعدم ثقة حبيبها فيها دراماتيكياً .

ذات يوم ، تناولت زهرة كانت مثبتة في شعرها ، وبدلال غمستها في كأس الخمر الخاصة بمارك أنطونيو ، كحركة إغراء واغواء . وعندما رفع الكأس إلى فمه ليشرب منها ، خطفت منه كليوباترة الكأس ، وطلبت إدخال أحد الأسرى ، وأعطته الكأس ليشربها . وما أن شرب منها الأسير حتى سقط ميتاً . فنظرت كليوباترة إلى أنطونيو نظرة منتصرة وهي تقول «لقد سممت الزهرة ! . أردت فقط أن أثبت لك قدرتي على قتلك بالسم إذا أردت ، برغم كل الاحتياطات التي تتخذها ..» .

سر الضفدعة القبيحة

والسر في قلة معلوماتنا عن معارف قدماء المصريين في مجال السموم

وتحضيرها ، هو أن ذلك العلم كان من العلوم السرية جداً ، يتناقله الكهنة والسحرة ، ويدرسونه للقلة المختارة . ومع هذا ، فما وصل إلينا يفيد أن قدماء المصريين كانت لديهم معرفة واسعة بالسموم .

ومن المعروف أن السم الذي تفرزه أنواع معينة من العقارب التي تعيش في شمال أفريقيا والهند ، يكون قادراً على قتل الإنسان .. وتظهر آثار هذا السم على شكل تقلصات في العضلات وشلل بالجسم ، وضعف في النبض ، وصعوبة في التنفس . وقد عرف قدماء المصريين كل هذا . ففي أوراق البردى الطبية «ايبرز» ، نجد تحذيراً من عواقب لدغة العقرب . كما تصف هذه الأوراق علاجاً للدغة العقرب يدخل فيها العسل وفضلات سيد قشطة ! ..

ثم هناك الضفادع الجبلية «العلجوم» قد يبدو غريباً أن يجعل منها قدماء المصريين حيواناً مقدساً رغم كل قبحها ، ورغم ما عرف عن المصريين القدماء من حس جمالي سليم . لكن هذا السر لم يرفع عنه النقاب إلا في خمسينات هذا القرن عندما اكتشف الصيدلي السويسري ، الأستاذ كوتومير من جامعة بازك ١٢ نوعاً مختلفاً من السموم في النتوء الموجود خلف أذني هذا النوع من الضفادع . فلعل هذا هو السر في الاحترام الذي أولاه قدماء المصريين لذلك الحيوان القبيح .

الذبابة الاسبانية

ورغم أن أغلب السموم تفعل فعلها عند الوصول إلى دم الضحية أو عند دخول فمها ، فهناك أنواع من السموم تكون فعالة بمجرد اللمس ،

أو عن طريق الاستنشاق عند التنفس .

هناك مثلاً ما يسمى «الذبابة الاسبانية» ، هذه الحشرة لا يزيد طولها على نصف بوصة ، وتفرز نوعاً من السموم يؤثر على الإنسان إذا ما وصل إلى الجلد من الخارج . والذبابة الاسبانية عندما تجف ، تحتفظ بحوالي نصف ما بها عادة من سم ، إذا لامست ذرات مسحوقها بعد أن تجف جلد الإنسان أحدثت به فقاقيع بها سائل ، وأدت إلى التهاب الأغشية المخاطية .

كما أن بعض النباتات في أمريكا الجنوبية تحدث نفس التأثير السام عند استنشاق الهواء القريب منها . وفي صيف عام ١٩٧٢ وصلت إلى ألمانيا شحنة من العقود الأفريقية المصنوعة من بعض أنواع الحبوب السوداء والقرمزية وبعض ثمار الأشجار لها لون مرجاني ، لكن المحكمة البافارية أصدرت حكماً ضد عقود الزينة هذه ، وحظرت استخدامها ، فقد تبين أن استنشاق هذه الحبوب والثمار يؤدي إلى الوفاة .

من هنا ، لا يكون ضرورياً أن يتأثر علماء الآثار بالسموم الموجودة في المقابر ، فقط عند دخول هذه السموم إلى الجوف أو وصولها إلى الدم ، فبعض السموم تؤثر بمجرد أن يحتك بها الجلد ، عندما تنفذ من خلاله وتفعل فعلها .

وبعض العلماء يقول إن المقابر يحتمل أن تكون قد زودت بمصادر للسموم ، تؤثر على الإنسان بمجرد استنشاق هواء المقبرة . ففي العصور الوسطى شاع أسلوب تسميم البشر عن طريق الاستنشاق ، عندما كانوا يغمسون فتيل القنديل في مادة الزرنيخ ، وبمجرد اشعال الفتيل ، يصدر

منه الدخان القاتل . ومن المعروف أن شخصيات كثيرة كبيرة تم التخلص منها بهذا الأسلوب ، مثل البابا كلمنت السابع عام ١٥٣٤ ، والإمبراطور النمساوي ليوبولد الأول عام ١٧٠٥ . فهل وضعت مثل هذه القناديل القاتلة في حجرة الدفن المحكمة للفراعنة ، واشعلت قبل إغلاق المدفن ؟ ..

. .

الفجل والبصل

ورغم أن قدماء المصريين لم يعرفوا شيئاً عن البكتيريا ، إلا أنهم كانوا بلا شك على علم بآثارها الفسيولوجية . فقد تحدث هيرودوت عن « النباتات السحرية » التي كان قدماء المصريين يستخدمونها . وبالدراسة تبين أن هذه النباتات التي اهتم هيرودوت بالحديث عنها لم تكن غير البصل والفجل والثوم ! ..

فمن المعروف أنه أثناء بناء الهرم الأكبر ، كان الفراعنة يوفرون لمئات الآلاف من العمال المسخرين لبناء الهرم مدداً لا ينفذ من الفجل والبصل والكرات . وكانت غايتهم من هذا تفادي انتشار الأوبئة وسط ذلك التجمع البشري الهائل . فأي وباء كان كفيلاً في ذلك الوقت بالقضاء على معظم العمال ، نتيجة لتجمعهم .

ومنذ وقت ليس ببعيد ، اكتشف العلماء أن هذه النباتات تحوي قدراً فعالاً من المضادات الحيوية التي تزيد مقاومة الجسم للعديد من الميكروبات والجراثيم . ويشير هلموت بوشار في كتابه «العقاقير العجيبة» إلى أنه في عام ١٩٤٧ استطاع عالمان ألمانيان أن يستخلصا من بذور الفجل مادة قابلة للذوبان في الماء لها مفعول قوي في القضاء على العديد من الميكروبات .

وبعد سنة واحدة من هذا ، أثبت عالمان سويسريان أن هذه المادة التي أطلق عليها اسم «رافانين» لها تأثير كبير على البؤرات الصديدية والميكروبات . كما اكتشفاها أيضاً في عصير الفجل والكرات والبصل .

سم الميت والعسل

كما قلنا ، لم يعرف قدماء المصريين شيئاً عن البكتيريا ، تحت اسمها هذا أو تحت أي اسم آخر ، لكنهم عرفوا بلا شك آثارها وبعض أساليب مواجهتها . فهم قد عالجوا العديد من الأمراض الجلدية وأمراض الكلى والعظام والدفتيريا وتسمم الدم والحمى القرمزية باستخدام المواد والأعشاب الطبيعية . ومن المفروض أن علم الصيدلة والسميات بلغ أوجاً عالياً في الإمبراطورية المصرية القديمة . ولقد أضاف أمحوتب وزير الملك زوسر إلى ذلك الرصيد اضافات كبيرة .

وأكثر ما كان يخشاه قدماء المصريين من بين السموم ما أطلقوا عليه اسم «سم الميت» وكانوا يشيرون بذلك إلى السموم التي يفرزها الجسم أثناء تحلله بعد الوفاة . وقد ورد في أوراق البردى ما يفيد أن أطباء مصر القديمة كانت لديهم وسائلهم «للتخلص من السموم التي تنتشر في جسم الميت» ، وكانوا يعتمدون في ذلك على الزيت والعسل وفضلات الفتيات الصغيرات والقطط والحمير والخنازير .

وقد ننظر إلى مثل هذا ببعض السخرية ، لكن الثابت أن هذه العناصر تحتوي على الأجسام المضادة التي تقاوم الكميات الصغيرة من السموم التي يمكن أن تصل إلى جوف الإنسان كل يوم . والسؤال المطروح

هل كانت هذه الوصفات أو العلاجات قادرة على إبطال مفعول السموم المميتة التي تنتج عن تعفن البروتينات ؟ . والسؤال الأهم هو : هل يمكن أن تحتفظ السموم التي في المقابر بمفعولها على مدى القرون ، بل وعلى مدى آلاف السنين ؟

المومياوات السوداء

الذي لا شك فيه أن السموم العادية تفقد تأثيرها بفعل الضوء والهواء والتعرض للشمس بعد عدة سنوات . لكن السموم القوية تحتفظ بمفعولها لعدة قرون ، خاصة إذا كانت محفوظة في فراغ محكم لا يتسرب منه أو إليه الهواء . ومقابر الفراعنة الصخرية وحجرات الدفن بالاهرامات ، تعتبر معامل تفريخ مثالية للبكتيريا . والذي يفرق بين أنواع البكتيريا ، هو نظام تنفسها . معظم البكتيريا تتغذى بمواد ذات أصل نباتي أو حيواني : كالدهون والكربوهيدرات والبروتينات . وظاهرة التفحم أو الاحتراق التي نلاحظها على أغلب المومياوات الملكية تجيء نتيجة للعمليات البكتريولوجية . فتحلل الدهون والزيوت والراتنج الذي يغطي المومياء ، يولد طاقة حرارية ، تقود إلى تضخم المومياء ، وقد تساءل الأثريون على مدى الأجيال عن سر اللون الأسود الذي تظهر به المومياء الفرعونية ، والإجابة عن هذا التساؤل تتلخص في كلمة واحدة .. البكتيريا .

لكن .. كم يمكن أن يطول عمر البكتيريا ؟ وهل تظل محتفظة بخصائصها المميتة على نفس الدرجة من القوة على مدى آلاف السنين ؟ . هل يمكن أن تكون لعنة الفراعنة ناتجة عن تلوث بكتيريولوجي متعمد في

المقابر الفرعونية ، بقي على قوته لآلاف السنين ؟

علماء الكيمياء والبكتيريولوجي يعتقدون أن هذا ممكن ، ويصلح تفسيراً للعنة الفراعنة . فهناك أنواع من البكتيريا يمكن أن تعيش لعدة قرون ، إذا ما لقيت الظروف المواتية . كما أن هناك أنواعاً أخرى من البكتيريا في جسم الإنسان لا تصبح خطيرة إلا بعد الوفاة ، عندما تبدأ في افراز سمومها التي تهدد الأحياء بالعديد من الأمراض وبخاصة الالتهاب السحائي . كما أن بعض أنواع البكتيريا التي تعيش على المومياوات تسبب مرض الدفتيريا .

هذه السموم التي تفرزها البكتيريا النامية على المومياء الفرعونية ، ونتيجة لظروف انضغاطها داخل الحيز المحدود المغلق ، للمقبرة المحكمة الاغلاق ، تكون أشبة بقنبلة الجراثيم التي تتنافس الدول على صناعتها لمواجهة حرب الجراثيم المحتملة .

ولقد عرف المصريون القدماء نوعاً من سموم الأعصاب . فقد كانت مصر قديماً مخزناً أو شونة غلال العالم . لذلك فقد عرف قدماء المصريين ما يسمى «أرجوت» أو عفن الجاودار ، الذي كان يسبب بعض الأمراض ، أهمها مرض «النار الباردة» وأعراض هذا المرض تظهر على شكل هرش شديد في الجسم وإحساس بالخدر في الأصابع ، وخمود الجسم ، مع تقلص في الأعضاء يصل أحياناً إلى الشلل وغياب الوعي .

فهل لنا أن نستنتج إمكان استخدامهم مثل ذلك الفطر لحماية مقابر فراعنهم . كان يكفي الكهنة أن يضعوا قدراً كافياً من هذا الفطر أو العفن داخل المقبرة ، فما أن يدخل اللصوص إليها ، حتي يخرجوا منها وقد ظهرت

عليهم الأعراض التي ذكرناها ، وراحوا يتحدثون عن اللعنة التي تلحق بكل من يقتحم المقابر الفرعونية .

حورمحب يخاف !

يتساءل فيليب فاندنبرج ، مؤلف كتاب «لعنة الفراعنة» هل واجه فرعون العسكري حورمحب مثل هذه المحنة عندما استولى على عرش مصر ، وعمد إلى تخريب كل ما تركه أسلافه لتخليد ذكراهم ونهب كنوزهم ؟ هل هذا هو السبب الذي جعله يتراجع عن اقتحام مقبرة توت عنخ آمون المليئة بالذهب ؟ ولماذا حدث ذلك ؟ .. هل على سبيل التورع ؟ .. لا أظن ذلك . إذا كان قد خشي شيئاً ، فليس إلا قوة سحر الكهنة الذين ختموا المقبرة ، والذين لا ريب قد استخدموا لحمايتها السموم أو مزارع البكتريا والجراثيم ، أو بعض الغازات السامة ..

ويعود فاندنبرج ليتساءل ، لماذا وقف حورمحب موقف العاجز أمام تلك المقبرة ؟ لقد كانت علاقته بالكهنة وطيدة ، وكانت لديهم بلا شك وسائلهم الخاصة التي يمكن أن تبطل عمل الكهنة السابقين . كما أن حور محب لم يكن ليمنعه من الوصول إلى كنوز توت عنخ آمون مثل هذا السبب . لقد كان بامكانه أن يضحي بعشرات أو حتى بمئات الجنود الذين سيوكل إليهم أمر اقتحام المقبرة ، دون لحظة تردد واحدة .

إن امتناع حور محب عن اقتحام مقبرة توت عنخ آمون ، يدفعنا إلى الاعتقاد بأن المقبرة كانت مزودة بنظام أمن خاص ، منع حور محب من خوض هذه المغامرة ، وأخاف لصوص المقابر بعد ذلك .. نظام علينا أن نبحث عن سره ، ففي مثل ذلك السر يمكن حل لغز لعنة الفراعنة .

الإشعاعات القاتلة

في مدافن شلالات إيداهو بأمريكا قبر غريب يحمل أسماء ثلاثة رجال . إلى جوار القبر لافتة كتب عليها «احترس .. مواد اشعاعية» . وهذه المواد الاشعاعية عبارة عن جثث ثلاثة رجال ماتوا ميتة مرعبة في ٣ يناير ١٩٦١ .. وعلى وجه الدقة في تمام التاسعة والدقيقة الواحدة مساء ، عندما اختل عمل المفاعل الذري التجريبي (س ل - ١) التابع للمركز التجريبي للجيش الأمريكي بمنطقة شلالات ايداهو . ورغم أن العطب لم يستمر أكثر من جزء من عشرين ألف جزء من الثانية ، فان المفاعل الذري خلال ذلك الزمن الشديد القصر ، غطى المنطقة كلها بالإشعاعات الذرية . لحظتها انطلقت صفارات الإنذار ، والتمعت الكشافات الدوارة التي فوق عربات الطوارئ ، وصدر الإنذار الأول : إنذار الإشعاع الذري .

بعد ذلك بخمسين دقيقة ، بدأ أول فريق انقاذ عمله ، يرتدي أفراده الملابس الواقية من الإشعاع ، ويتزودون بأجهزة قياس درجة الإشعاع . انطلق الفريق إلى جوف المفاعل الذري ، بعد أن أعلن عن فقد ثلاثة رجال من رجال الجيش الأمريكي العاملين في المفاعل الذري «س ل - ١» . قالت التقديرات الأولى إنه إذا ما كان الرجال ما زالوا في داخل مبنى المفاعل الذري فلا ريب انهم قد فارقوا الحياة .

في الحادية عشرة إلا ربع ، دخل أفراد فريق الإنقاذ بملابسهم البيضاء الفضية الواقية من الإشعاع إلى داخل المفاعل الذري ، فوجدوا رجلين ينطرحان على الأرض . كان أحدهما ما زال على قيد الحياة ، وعندما جرى نقله إلى خارج المبنى كان ما زال يتحرك ، لكنه مات قبل أن يصلوا به إلى عربة الاسعاف .

أما الرجل الثاني فلم تظهر عليه أي علامة من علامات الحياة ، لذا فقد بقي جثمانه حيث هو لمدة يومين . ولم تبدأ محاولة الوصول إلى جثمان الرجل الثالث إلا بعد أسبوع كامل فقد كان في عمق المفاعل الذري ، ولذا فقد قرر العلماء أن دخول رجال الإنقاذ إلى مركز المفاعل سيكون محفوفاً بالمخاطر ، حتى مع اتخاذهم كل الاحتياطات . وكان الحل هو استخدام ونش آلي يجري التحكم في حركته عن بعد .

كالشبح الغريب ، أخذ الونش طريقه إلى داخل المفاعل الذري ، يتلوى في حركته الثعبانية ، عبر الأبواب الآلية لمبنى المفاعل ظل يتأرجح ويزحف حتى وصل إلى غرفة التحكم ، ساحباً الجثتين بلسانه وأسنانه إلى خارج المفاعل .

وبنفس الطريقة جرى دفن الجثث الثلاث في مدافن شلالات ايداهو . الونش الآلي يحمل التوابيت الثلاثة المصنوعة من الرصاص السميك إلى الحفرة التي أعدت لدفنها . وبعد أن تلا القس صلاة قصيرة ، رفع الونش التوابيت الضخمة واحداً بعد الآخر ، وأودعها القبر الكبير ، وتكلفت ناقلة الاسمنت الواقفة إلى جوار الحفرة ، بدفع كميات كبيرة من الاسمنت ظلت تتدفق حتى غطت التوابيت بطبقة سميكة من الاسمنت .

وحوادث تسرب الاشعاعات الذرية ، الشبيهة بحادثة شلالات ايداهو ، تقتل سنوياً ما يصل إلى خمسة أشخاص . هذا هو ما تعلن عنه الدول ، إلا أن التقدير الحقيقي يتجاوز هذا بكثير ، ذلك لأن الحكومات تعمد إلى اخفاء أخبار مثل هذه الكوارث عادة . على أي حال ، فان حالات الوفاة المباشرة – نتيجة التعرض للاشعاع تعتبر نادرة . لكن هناك العديد من الحالات التي تحدث فيها الوفاة بعد مرض طويل ، نتيجة للتعرض لقدر من الاشعاع .

الكهنة عرفوا اليورانيوم

وفي عام ١٩٤٩ ، أثار العالم الذري المعروف بروفيسير لويس بلجاريني دهشة علماء الآثار عندما قال «اعتقد إن قدماء المصريين فهموا قوانين التحلل الذري ، وأن اليورانيوم كان من المسائل المألوفة لدى كهنتهم وحكمائهم .. ومن المحتمل انهم استخدموا الاشعاعات الذرية لحماية أماكنهم المقدسة» .. وقد ساند رأي العالم الذري الكبير ، أن الصخور المحتوية على اليورانيوم ، جرى استخراجها من مناجم مصر الوسطى .

هل يعني هذا أن لعنة الفراعنة اعتمدت على حزام قاتل من الاشعاعات ؟. العالم بلجاريني لا يستبعد مثل هذا الاحتمال ، ويقول «.. من الممكن أن تكون أرضية المقابر قد غطيت باليورانيوم ، أو أن تكون القبور نفسها قد كسيت بصخور مشعة .. مثل هذا الاشعاع يمكن في يومنا هذا أن يقتل إنساناً ، أو على الأقل يؤثر تأثيراً سيئاً على صحته» ..

وأول حديث عن اشعاع اليورانيوم جرى عام ١٨٩٦ ، عندما اكتشف

العالم الطبيعي الفرنسي هنري بكريل أن أملاح اليورانيوم تصدر اشعاعاً شبيهاً بالأشعة السينية . فقبل هذا بسنة واحدة كان ولهلم كونراد رونتجن قد أثبت وجود «ذلك النوع الجديد من الأشعة» ، والتي تحمل اسمه ، على الأقل بين الشعوب التي تتكلم الألمانية . حظي كل من رونتجن وبكريل بجائزة نوبل . ودون انتقاص لجهدهما وانجازهما العلمي ، يمكننا أن نتساءل : هل كان جهد العالمين الكبيرين في جوهره اعادة اكتشاف لما كان قدماء المصريين قد اكتشفوه واستخدموه من قبل ؟!

لم يكن رونتجن أو بكريل يدركان أهمية النتائج التي تترتب على اكتشافيهما . وإذا ارتبطت لعنة الفراعنة ولو جزئياً بتأثير الاشعاع فهذا يعني أن قدماء المصريين كانوا يتمتعون بقدر من المعرفة يتجاوز ما وصل إليه العالمان الحائزان على جائزة نوبل ، ومن الغريب أن العالمين الكبيرين تعاملا في بداية هذا القرن مع المواد المشعة دون اتخاذ أي احتياطات لاتقاء ضررها .. لقد كانا ينظران بانبهار إليها وكأنها من الألعاب العجيبة المدهشة . فقد سافر هنري بكريل إلى لندن ليلقي بها محاضرة علمية حول اكتشافاته العلمية ، وكان يحمل في جيب سترته قطعة نشطة من اليورانيوم ! .. ولهذا فقد عانى من حروق حادة بجسده نتيجة لهذا التصرف .

والمقابل المرعب للعنة الفراعنة ، يظهر في واقعة جرت في عشرينات هذا القرن . فبعد قليل من اكتشاف المواد الإشعاعية ومعرفة قدرتها على التوهج في الظلام ، بدأت حركة نشيطة في نيوجيرسي لصناعة قرص الساعة المضيء في الظلام ، أمضت مجموعة من النساء الساعات الطويلة كل يوم يضعن نقطاً صغيرة كعلامات مضيئة على قرص الساعة ، باستخدام

فرشاة صغيرة ومادة مشعة . ولم يظهر أثر ذلك إلا بعد سنتين عندما ماتت أول إمرأة من العاملات نتيجة لالتهابات حادة بالجسم .

ساعتها تنبه العلماء والأطباء للاثر الخطير الذي يمكن أن تلحقه المادة المشعة بالإنسان ، فاتخذت الاحتياطات لتفادي هذه الاخطار ، لكن على مدى عشر سنوات توفيت على التوالي ٤٢ امرأة من العاملات ، بعد أن أصبن بالسرطان ، كنتيجة مباشرة للتعرض للإشعاع .

وهنا يجب أن نذكر ما أوردناه من قبل ، من أن أكثر حالات الوفاة بين علماء الآثار المتصلين بالمقابر الفرعونية ، لم يتمكن الأطباء من تحديد السبب الحقيقي لها ، وأن العديد من علماء الآثار المصرية القديمة والمستكشفين شكوا من إحساس متزايد بالاجهاد ، كما ظهر على البعض علامات واضحة لخلل في مادة المخ بعد العمل الطويل داخل المقابر .

مأساة التنين المحظوظ

وتأثير الإصابة بالإشعاع قد يكون بطيئاً ، يغيب على الملاحظ . ومن بين الحالات والوقائع المبينة لهذا ، قد يفيدنا التأمل الدقيق لحالتين من هذه الحالات ، حتى نصل إلى العناصر المشتركة بينها وبين ظاهرة الوفيات المتكررة والغريبة بين علماء الآثار المصرية .

في أول مارس ١٩٥٤ ، فوجئ مركب الصيد الياباني «التنين المحظوظ» بأمطار من الرماد المشع تتساقط عليه ، جاءت نتيجة لتفجير ذري أمريكي في جزر مارشال . لقد كان لذلك التفجير الذري التجريبي آثاره الوخيمة . إذ أن جميع بحارة ذلك القارب ، والبالغ عددهم ٢٢ بحاراً ، أصيبوا

بالأثر المدمر للاشعاعات . أحد البحارة ، الصياد كابوجاما البالغ من العمر أربعين سنة ، توفي بعد ستة أشهر من تعرضه لذلك الرماد الذري .

أقر الأطباء الذين أشرفوا على علاجه ، أن السبب الأساسي للوفاة كان الاشعاع الذري الذي تعرض له ، أما السبب المباشر فكان انهيار الجهاز الدوري ، نتيجة لوصول الاشعاع إلى الكبد . لقد انكمش كبد البحار كابوجاما فأصبح يزن ٨٢٠ جراماً ، وكان وزنه الطبيعي يصل إلى ٢٢٠٠ جرام . وقال الأطباء ان هذا الانكماش الذي طرأ على الكبد أصاب الرجل باليرقان « مرض الصفراء » . وهذا بدوره قاد إلى تأثيرات ضارة على القلب والكلى .. فقد أعقب هذا نزيف في الكلى وإصابات في البنكرياس .

ولقد رأينا فيما سبق كيف أن معظم رجال الآثار المصرية القديمة شكوا هم أيضاً من الإحساس بالاجهاد الشديد قبيل وفاتهم بقليل .. وفي كثير من الأحيان أرجع الأطباء الوفاة إلى « مرض غامض » ، ولم تتضمن تقاريرهم سبباً محدداً واضحاً للوفاة ، ولهذا يكون من حقنا افتراض اصابة الضحايا باشعاع ذري أو بمواد مشعة . وحقيقة أن أثر العمل داخل المقابر الفرعونية يتباين من شخص إلى آخر ، تقابل حقيقة أن أثر الاشعاع يتباين من شخص لآخر .

بعض الباحثين الأثريين عانوا من تغيرات بيولوجية بمجرد بدء عملهم في المقابر بالقرب من الموميات ، والبعض الآخر لم تظهر عليه هذه الآثار إلا بعد شهور أو سنين . البعض مات فجأة وبشكل غير متوقع ، والبعض الآخر عانى من اصابات في المخ ، ثم هناك أخيراً من عملوا طويلاً في المقابر الفرعونية ولم يلحق بهم أي أذى من أي نوع ..

عائلة ماتسودا

هذا التباين في أثر الإصابة بالاشعاع لا يعتبر شاذاً . فبعد ٢٠ عاماً من قصف هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذرية في أغسطس ١٩٤٥ ، نشرت وزارة الصحة اليابانية مجلداً بهذه المناسبة ، يكشف الأثر المتباين للاشعاع على الأشخاص .

فحتى عام ١٩٦٤ ، كان ٢٠٠ شخص يموتون كل عام بتأثير الاشعاع الذري . ففي كل عام كانت تظهر أعراض الإصابة بالاشعاع على ١٥٠ شخصاً لأول مرة منذ القاء القنبلة الذرية .

من الحالات ذات الدلالة ، حالة سائقة الأتوبيس التي كانت حينئذ في العشرين من عمرها ، واسمها كيموكو ماتسودا . بعد الكارثة الذرية كانت كيموكو تبدو في خير صحة وعافية ، لكنها بدأت فجأة تشكو من الاجهاد . وبعد سبعة أيام من بداية الشكوى توفيت . أما والدة كيموكو وأختاها فقد تألمن من اصابات اشعاعية حادة ، ونقلن إلى المستشفى بعد الغارة مباشرة ، وتوفين بعد ذلك بقليل . وبعكس هذا ، فقد عاش والد كيموكو ١٨ سنة بعد ذلك وإلى عام ١٩٦٣ . وشقيقها الذي يكبرها بست سنوات ، ما زال حياً حتى الآن ، يتمتع بصحة جيدة ، الغريب أنه عندما سقطت القنبلة الذرية كانت عائلة ماتسودا بأكملها مجتمعة في نفس البيت .

وبالطبع ستكون المبالغة شديدة ، إذا ما حاولنا عقد مقارنة بين الآثار الاشعاعية القاتلة للقنبلة الذرية وبين الاشعاعات التي يمكن أن تصدر من مقابر وموميات الفراعنة . لكننا في هذا الصدد نشير إلى الظاهرة المشتركة ،

ظاهرة تباين الأثر على مختلف الناس . ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى حقيقة علمية تقول إن الضرر الذي ينشأ من التعرض طويلاً لاشعاع ضعيف يمكن أن يكون له نفس أثر التعرض لاشعاع قوي ولفترة قصيرة .

إشعاع لآلاف السنين

وهنا أيضاً نجد انفسنا نطرح نفس السؤال الذي سبق ان طرحناه عند مناقشة نظرية ارجاع لعنة الفراعنة الى السموم أو البكتريا : هل من الممكن أن تبقى لمصادر الاشعاع داخل المقبرة ، نفس الآثار الفعالة على مدى آلاف السنين ؟ . وإذا كان هذا ممكناً ، فهل تكون قوة ذلك الاشعاع قادرة على الحاق الأذى بالبشر ؟ ..

دون الدخول في دقائق التفاصيل العلمية ، يكفي أن نشير الى انه في اعقاب التفجير الذري تنشأ ايسوتوبات مشعة يطلق عليها « سترونتيوم ٩٠» ، تتسلل الى الطعام الذي يتناوله الانسان كاللحم واللبن والبيض ، ومنها ينطلق الى عظام الانسان ويستقر فيها ، ليقذف الدم بسيال من الاشعاع المتواصل . ومن المعروف ان مادة « سترونتيوم ٩٠» لها (نصف – حياة) يصل مداه الى ٢٨ سنة .

واصطلاح (نصف – حياة) يعني سرعة التغير الذري للمادة الاشعاعية ، وهو الزمن الذي تستغرقه نصف نواة الذرة في تحللها . وهذا يعني انه بعد دورتين من دورات (انصاف – الحياة) ، يبقى ربع العنصر المشع « النصف أولاً ، ثم نصف النصف أي الربع » .

(انصاف – الحياة) تختلف من عنصر الى آخر . فبينما يبلغ (نصف

حياة) ايسوتوب الكلور ساعة واحدة . تجد انه بالنسبة لايسوتوب الصوديوم ٢,٦ سنة . أما عنصر الراديوم فله (نصف - حياة) يصل الى ١٥٨٠ سنة .. وهكذا حتى تصل الى اليورانيوم فنجد ان ايسوتوب يورانيوم ٢٣٨ له (نصف - حياة) يمتد الى ٧,٥ بلايين سنة « البليون = مليون مليون » ..

إذا قبلنا الفرض القائل بأن لعنة الفراعنة تنتج عن مادة اشعاعية ، فانه من المحتمل أن يكون مصدر ذلك الاشعاع تعويذة من التعويذات العديدة الموضوعة داخل أكفان المومياًت ، أو غيرها من الأشياء التي لم يجد لها العلماء استخداماً وظيفياً أو رمزياً . وعلى هذا الاساس يمكن ارجاع سبب وفاة العديد من الاثريين والمستكشفين الى فعل تلك الأجسام المشعة . كما يمكن تفسير كارثة الباخرة العملاقة تيتانيك بنفس الطريقة .

الكاهنة اغرقت باخرة

في ١٤ ابريل ١٩١٢ ، اصطدمت الباخرة تيتانيك بجبل من جبال الثلج فغرقت ، بينما كانت في وسط رحلتها من سوثهامبتون بانجلترا إلى نيويورك . وقد غرق من ركابها ألف وخمسمائة راكب .. هذا على الرغم من أن تيتانيك اعتبرت أجمل وأكبر وأسرع باخرة في العالم ، ووصفت بأنها الباخرة التي لا يمكن أن تغرق ! ..

لقد لعب قبطان الباخرة كابتن ادوارد سميث دوراً غامضاً في تلك الكارثة ، لم نجد له تفسيراً حتى اليوم . فالكابتن سميث كان قبطاناً من الدرجة الأولى ، ومن رجال البحر المتمرسين وإلا لما كان اختير لهذه الوظيفة . لكنه ، في ذلك اليوم من ابريل ، قام بالكثير من التصرفات الغريبة .

بدأت هذه التصرفات الغريبة ، بخط السير الذي اختاره ، وبالسرعة العالية غير العادية التي سار بها ، وبطريقته في طلب النجدة ، ثم بارجائه اعلان خطة النجاة الى آخر لحظة .

لقد كان على متن الباخرة تيتانيك ٢٢٠٠ راكب ، و٤٠ طنا من البطاطس ، و١٢٠٠٠ زجاجة مياه معدنية ، و٧٠٠٠ جوال من البن ، و٣٥٠٠٠ بيضة ، ثم .. مومياء مصرية ! . مومياء اراد لورد كانترفيل أن ينقلها من انجلترا إلى نيويورك .

كانت المومياء للكاهنة التي شاع صيتها أثناء حكم أمنحتب الرابع ، الفرعون الذي اشتهر باسم اخناتون . وقد عثر على قبرها بتل العمارنة ، في معبد صغير بني خصيصاً لهذه الكاهنة باسم « معبد العيون » .

كانت مومياء الكاهنة عند اكتشافها مزودة بالتعاويذ والتمائم المعهودة . ومن بين هذه التعاويذ ، تعويذة عليها رسم الإله اوزيريس ، وقد كتب عليها « أفيقي من هذه الغيبوبة التي ترقدين فيها ، فنظرة من عينيك كفيلة بالانتصار على كل ما ارتكب ضدك » . وجدت التعويذة تحت رأس المومياء ، فهل يعني هذا أن ما بقي من جسد الكاهنة المصرية القديمة يتمتع بنوع خاص من الحماية ؟

داخل الباخرة تيتانيك ، كانت المومياء موضوعة في تابوت خشبي . ونظراً لقيمتها الكبرى ، لم يتم حفظها في مخازن الباخرة الكبيرة ، بل وضعت في مكان أمين ، خلف حجرة قيادة الباخرة . ومن المعروف أن العديد من العلماء الذين تعاملوا مع المموميات ، ظهرت عليهم علامات واضحة من التشويش العقلي ، فهل نظر كابتن سميث في العينين المشعتين

القاتلتين لمومياء الكاهنة المصرية القديمة ؟ وهل يمكن أن نعتبره هو الآخر ضحية من ضحايا لعنة الفراعنة ؟ !

الذهب مع اليورانيوم

رغم أن قدماء المصريين لم تكن لديهم حفارات آليه ضخمة كالتي نعرفها اليوم ، إلا أنهم حققوا الإنجازات الهائلة ، اعتماداً على عضلاتهم . ومن بين هذه الانجازات ما استخرجوه من باطن الأرض من ذهب ..

ولما كان الذهب واليورانيوم يتواجدان في نفس الصخور ، فمن المحتمل أن يكونوا قد استخرجوا اليورانيوم أيضاً من نفس المناجم

الكثير من أوراق البردي تتحدث عن مناجم الذهب المصرية القديمة شرق نهر النيل . ويقدر مهندسو التعدين ان قدماء المصريين استخرجوا ١٠٠ ألف طن من صخور الذهب من جوف الأرض . وتشير واحدة من اوراق البردي الى مواقع مناجم الذهب في عصر سيتي الأول حوالي ١٣٠٠ قبل الميلاد ، فتقول « الجبال التي يستخرج منها الذهب ، نشير اليها باللون الأحمر » .

ورغم انه لا توجد أي إشارة في المخطوطات المصرية القديمة عن اليورانيوم أو الثوريوم ، بالطبع ليس تحت هذين الاسمين ، ولا تحت أي اسماء أخرى ، إلا أن هذا لا يقدم دليلاً دامغاً على أن قدماء المصريين لم يعرفوا هذين العنصرين ، فمن الممكن أن يكونوا قد استخدموهما واستفادوا من طاقاتهما ، دون معرفة مصدر هذه الطاقة أو طبيعتها ، أو كيفية تأثيرها .

خبراء الحضارة المصرية القديمة لا يعطون اجابة واضحة عن التساؤل .
وإذا كنا حتى الآن لا نمتلك الدليل القاطع على أن المصريين القدماء قد عرفوا أثر الاشعاع والمواد المشعة ، الا اننا لا نجد دليلاً قاطعاً على انهم لم يعرفوا استغلال هذه الطاقة .

الطاقة الكونيّة تحمي مقابر الفراعنة

في الثانية والنصف صباحاً انطلقت عربات الاطفاء بكل سرعتها في شوارع مدينة فيستمانيار ، بأيسلندا . بدأت القصة عندما تلقت وحدة الاطفاء مكالمة من مواطن يقول فيها « أحد المنازل يحترق شرق المدينة » وكان ذلك مساء ٢٣ يناير ١٩٧٣ . بعد اربع دقائق من انطلاق عربات الاطفاء ، شوهدت وهي تعود مسرعة وقد اطلقت صفاراتها . لقد كانت المهمة مستحيلة بالنسبة لرجال الاطفاء ، فقد شب الحريق نتيجة نشاط بركاني .

ذلك البركان الذي نشط فجأة في « الجبل المقدس » بالجزيرة الكائنة جنوب الشاطئ الايسلندي ، والتي لا يتجاوز مسطحها ١٦ كيلومتراً مربعاً ، لم يظهر أي نوع من أنواع النشاط منذ ٧٠٠٠ سنة ! . في تلك الليلة المأساوية ، انفتحت فوهة جانبية من الجبل بلا انذار سابق ، أحدثت شقاً طوله كيلومتر ونصف بأرض الجزيرة ، واندفعت الحمم من ذلك الشق في الهواء بمعدل ١٠٠ متر مكعب من الحمم كل ثانية .

مع تدفق الحمم المتوهجة ، فاضت عن الأرض واندفعت الى البحر ، حارقة البيوت ، دافنة السيارات ، محدثة اشكالاً مخيفة من الخراب . وعند نزول هذه الحمم البركانية إلى البحر ، جعلت مياه ميناء فيستمانيار تغلي وتفور . ولحسن حظ المدينة ، كانت الرياح ساكنة في ذلك اليوم ،

فلم تنتشر النيران في انحائها .

مثل هذا الحدث الطارئ ، يمكن أن يكون الشغل الشاغل للعلماء على مدى آلاف ومئات آلاف السنين .. سينظرون إليه باعتباره علامة يستنبطون منها معارفهم ، عما جرى في تلك الجزيرة عام ١٩٧٣ .

الحمم البركانية عندما تنطلق في السماء ، تحمل معها جسيمات من الحديد ، والمجال المغناطيسي للارض يوجه هذه الحمم وهي تسبح في الفضاء بعد اندفاعها . كل جسيم حديدي يعمل عمل ابرة البوصلة المغناطيسية ، ولهذا فهي تتخذ جميعاً نفس الاتجاه . عندما تتجمد هذه الحمم وتتحول الى بازلت ، فانها سترسم على الأرض اتجاهاً محدداً ، يوضح لمئات آلاف السنين بعد ذلك ، الطبيعة الدقيقة للمجال المغناطيسي للأرض عام ١٩٧٣ .

فاذا سقطت هذه الواقعة من سجلات التاريخ لسبب أو لآخر ، فسيتمكن العلماء في أي زمن قادم من تحديد تاريخ ثورة ذلك البركان بدقة اعتمادا على الاتجاه الذي تلتزمه الحمم المتجمدة في شكل بازلت . والسر في هذا أن القطب المغناطيسي الشمالي للارض لا يبقى في مكانه بالنسبة لقطبها الجغرافي ، وهو يتحرك خاضعاً لتغيرات دائمة . ومن المعروف علمياً أن القطب المغناطيسي الشمالي للارض كان منذ ٧٠٠ الف سنة في موقع القطب الجغرافي الجنوبي ! .. وقبل هذا بمائتي الف سنة كان القطب الشمالي المغناطيسي ينطبق على القطب الشمالي الجغرافي . وعلى مدى ٧٦ مليون سنة من تاريخ الأرض ، حدث ١٧١ انقلاباً كهذا في القطب المغناطيسي للارض .

هذه التغيرات القطبية تخلق تغيرات مناظرة في الطقس ، وفي النشاط البركاني ، وتحدث الزلازل ، والأهم من ذلك كله انها تحدث تغيرات في توازن الطاقة الكونية ، الأمر الذي يمكن أن يكون له اثره المدمر . العواصف المغناطيسية ، والتغيرات المباغتة في المجال المغناطيسي للأرض ، يعطيان فكرة عن الأثر الهائل الذي يمكن أن تحدثه التغيرات القطبية .

والأرض تستمد مجالها المغناطيسي من الطبقات المتبادلة الصلبة والسائلة داخلها . اللب الصلب لأرضنا تحيط به طبقة سائلة ، وهذه بدورها محاطة بطبقة أكثر كثافة . ووفقاً لقانون الجاذبية تتعرض هذه الطبقات لحركة تتباين سرعتها اثناء دوران الأرض وحركتها في الفضاء ، وهذا هو الذي يخلق داخل الأرض التيارات الكهربائية ، ويسبب المجالات المغناطيسية . ويصبح جوف الأرض اشبه بالمولد الكهربي العملاق . هذه التيارات تسبح حول خط الاستواء . وعندما يحدث الانقلاب القطبي ، ينتقل القطب المغناطيسي الشمالي الى النصف الجنوبي من الكرة الأرضية ، بينما يتجه القطب المغناطيسي الجنوبي الى الشمال .

فالقطبان الشماليان الجغرافي والمغناطيسي لا يتطابقان ، وهما حالياً غير متطابقين . ذلك لأن القطب المغناطيسي الشمالي يتحرك باستمرار .. اثناء العصر الجيولوجي الثالث كان القطب المغناطيسي الشمالي عند التقاء خط عرض ٧٠ شمالاً وخط طول ٦٠ غرباً . ومنذ ٣٥٠ مليون سنة كان عند التقاء خط عرض ٣٠ شمالاً وخط طول ٣٠ غرباً .

لقد امضى العلماء أكثر من مائة سنة يسجلون الضعف المطرد للمجال المغناطيسي للأرض . والحسابات الحديثة تفيد أن هذا التناقص يتزايد

وان المجال المغناطيسي للأرض يمكن أن يصل الى صفر خلال الفي سنة فقط . بعد هذا ، أي بعد الفي سنة ، ستبني الأرض مجالها المغناطيسي بالشكل المعاكس للشكل الحالي .

أما كيف سيكون تأثير ذلك الانقلاب القطبي على الحياة فوق الأرض ، وهل سيتحمل الانسان مثل هذا التغير ، فما زال لغزا يحير العلماء . الذي لا شك فيه ان البشر سيبدون عندئذ اهتماماً مضاعفاً بمسائل علمية وطبيعية وجغرافية قلما يلتفتون اليها حالياً بشكل جدي .

حكمة اختيارمدن الموتى

قوة المجال المغناطيسي الأفقي للأرض حالياً تساوي جزءاً من عشرة اجزاء من الجاوس « الجاوس وحدة قياس مغناطيسية » ، بينما تتراوح قوة المجال المغناطيسي للبقع الشمسية بين ٢٠٠٠ و٤٠٠٠ جاوس . وقوة المجال المغناطيسي في السلك المتصل بالمصباح الكهربائي تبلغ ٠,٢ جاوس « أي ضعف قوة مجال الأرض » ، وذلك لأن المجال المغناطيسي للارض يتضاعف في الأجسام التي يدخل فيها الحديد .

وإذا أمسكت بمظلة ووجهتها ناحية الأرض ، ينشأ قطب شمالي عند مقبض المظلة . ونحن لا نشعر بذلك ، كما أن العلم لا يعطي هذا اهمية خاصة ، لان مثل هذه القوى تبدو وكأنها لا تفيد عملياً في شيء . لكن قدماء المصريين بتأملاتهم الدقيقة للكون من حولهم ، كانوا يقتفون أثر الظاهرة التي بدأنا نأخذها مأخذ الجد منذ وقت قريب .

هناك الكثير من تصرفات قدماء المصريين التي قد تبدو بلا معنى ، من

الممكن أن تظهر لنا حكمتها لو درسناها دراسة أعمق . لماذا عمد المصريون القدماء إلى وضع أجسام أسلافهم الذين يحبونهم بعد التحنيط في وضع رأسي داخل حجرات معيشتهم لعدة سنوات ؟ لماذا كانوا يدفنون فراعنتهم بعيداً عن أي عمران سكاني في مدن ضخمة للموتى ؟ لقد اختارت طيبة وادي الملوك لكي يكون مدينة موتى لها ، واختارت ممفيس كمدينة لموتاها منطقة المدافن في سقارة ومنطقة اهرامات الجيزة . هل اختاروا هذه الأماكن بالذات لمعرفتهم انها اكثر تأثراً بالقوى الكونية ؟

نظامنا الشمسي بأكمله يقع تحت تأثير متبادل للمجالين الكهرومغناطيسي والاشعاعي ، الأمر الذي يؤثر على جميع أشكال الحياة فوق الأرض . على سبيل المثال ، المجال المغناطيسي يجذب الأشعة الكونية ، وهذا هو السبب في ان جسيمات الاشعاع الكهرومغناطيسي لا تستطيع أن تنطلق بحرية في خطوط مستقيمة ، بل ترغم على أن تتخذ مسارات حلزونية تقتفي أثر خطوط قوى المجال المغناطيسي .

وحزام فان الين ، وهو المنطقة الاشعاعية المحيطة بالأرض ، يتكون من جسيمات ذات طاقة عالية من الاشعاعات الكونية التي تخضع للمجال المغناطيسي للأرض .

الشمس .. المعبود الأول

من بين معبودات المصريين القدماء ، تعتبر الشمس أكثرها تقديساً ومكانة . وإذا كانت اهتماماتهم العلمية قد انصرفت الى شيء بعينه ، فهو الشمس . فمنذ قديم الزمن اعتبرت الشمس « آمون » اقدس الآلهة

وأهمها . ومن ثم حظيت باهتمامهم وشغلت تفكيرهم .

كذلك تكشف النصوص البابلية القديمة عن ملاحظات دقيقة للشمس ، متى يزيد ضوؤها ومتى يخفت ، ماذا يحدث للبقع الشمسية السوداء على سطح الشمس . ورغم أنهم في وقتهم لم يعطوا اهتماماً بالغاً بالبقع الشمسية فقد تكفل الصينيون بذلك في القرن الثالث عشر الميلادي ، وهم الذين اثاروا فضول جاليليو العلمي بحديثهم عنها . وفي منتصف القرن الماضي اكتشف العلماء الألمان ان نشاط البقع الشمسية يصل الى قمته كل ١١ سنة .

واليوم ، نعلم ان البقع الشمسية لها تأثيرها القوي على النشاط العضوي والكوني فوق الأرض .. معظم الكوارث الطبيعية يتفق توقيتها مع أعلى نشاط للبقع الشمسية .

بركان كراكاتو في ستداستريت الذي راح ضحيته ٨٠ الف آدمي ، حدث عندما كان نشاط البقع الشمسية في أوجه . معظم الزلازل الكبرى التي هزت سان فرانسيسكو ومسينا عامي ١٩٠٦ و١٩٠٨ على التوالي ، حدثت متوافقة مع نشاط البقع الشمسية . وفي سبتمبر عام ١٩٢٦ هب اعصار تورنادو المدمر على مساحات واسعة من فلوريدا ، وانقض الاعصار الدوامي على جامايكا وتعرضت نبراسكا لكوارث طبيعية وايضاً كان نشاط البقع الشمسية في ذلك الوقت عند أوجه .

فما هي هذه البقع الشمسية ؟ إذا وضعنا مصباحاً مضيئاً أمام قطعة من الصلب مسخنة الى حد الاحمرار ، فسيظهر المصباح للعين كبقعة داكنة . والبقع الداكنة التي تظهر على قرص الشمس ، ليست كتلاً

جامدة أو باردة ، انها ببساطة مناطق لها درجة حرارة عالية جداً ، ولكنها أقل من درجة حرارة الجو المحيط بها على سطح الشمس .

وهذه البقع تخفض درجة حرارة سطح الشمس من ٦ آلاف درجة مئوية الى ٤ أو ٥ آلاف درجة مئوية . وهي تتسبب في هذا التأثير ، بالرغم من أن نسبة مساحة البقع الشمسية إلى مساحة قرص الشمس لا تتجاوز الواحد في المائة .

وفي الثامن من فبراير عام ١٩٥٨ ، لاحظ علماء الفلك الذين يعملون في مرصد هارفارد الراديوي بتكساس ، ما أسموه « ضوضاء مرئية » قادمة من الفضاء . أما علماء الفلك في ساكرمنتوبيك بنيو مكسيكو فقد سجلوا نشاطاً عالياً للبقع الشمسية . والتليسكوب الراديوي في هونولولو استطاع تسجيل السنة اللهب الهاربة من الشمس . وبعد ٢٤ ساعة من هذه الملاحظات ، انفتحت أبواب الجحيم على الأرض .

انقطعت الاتصالات اللاسلكية .. أكثر من مائة طائرة كانت تحلق فوق المحيط الأطلسي فقدت اتصالاتها بالأرض ... خط الارسال التليفوني الممتد تحت البحر بين اسكتلندا ونيوفوندلاند سجل فجأة ارتفاعاً غير عادي في جهده الكهربي الذي بلغ ٢٠٠٠ فولت . أما محطة كهرباء تورنتو فقد توقفت عن العمل ... وكان السبب في هذا كله هي احداث تقع على بعد ١٥٠ مليون كيلومتر ... على سطح الشمس ! !

ممرات هرم خفرع

ولولا المجال المغناطيسي للأرض ، لقذفتنا الشمس بخليط من اشعتها

واشعاعاتها ، خليط من الممكن أن يقضي على أشكال الحياة فوق الأرض .. وعلماء الفضاء يفرقون دائماً في حديثهم بين نوعين من الاشعاعات : الاشعاعات الأولية ، والاشعاعات الثانوية ، ويطلقون اسم اشعاع أولي على الاشعاع الصادر من الشمس قبل أن يطرأ عليه التغير حين مروره بالغلاف الجوي ، واسم اشعاع ثانوي على ذلك الاشعاع بعد أن يصل الى الأرض ، وبعد أن يكون قد فقد الكثير من فعاليته ..

والاشعاعات الكونية اعتمد عليها العلماء في بحوثهم الأثرية . في عام ١٩٦٥ قرر أحد كبار العلماء أن يدرس تركيب هرم خفرع باستخدام الاشعة الكونية وكان ذلك العالم هو البروفيسور لويس الفاريز العالم الطبيعي الحائز على جائزة نوبل ، والذي كان علم الآثار بالنسبة له هواية خاصة .

في عام ١٨١٨ زحف المستكشف الأثري جيوفاني يلزوني الى داخل هرم خفرع ، الهرم التالي لهرم الجيزة الأكبر ، فلم يجد سوى غرفة دفن واحدة خالية . ومنذ ذلك التاريخ اخذ علماء الآثار يتساءلون عن احتمال وجود حجرات اخرى داخل جسم هرم خفرع لم تكتشف بعد . وكان سبب هذا التساؤل ما تم الوصول اليه داخل هرم خوفو من ممرات وسراديب متعددة ، تؤدي الى حجرتين وليس الى حجرة واحدة .

وقد تصدى العالم الفاريز لمهمة بدت مستحيلة .. البحث عن حجرة يبلغ حجمها بين ١٥ ، ٢٠ متراً مكعباً ، وسط صخور وحجارة الهرم التي يصل وزنها الى ٤,٤ مليون طن !

قبل محاولة بروفيسور الفاريز ، كان بعض علماء الآثار يعتمدون في مثل هذه المهمة على خبراتهم السابقة في الكشوف الأثرية الأخرى ،

فالطريقة التي تمتد بها ممرات هرم خوفو يمكن أن تكون صممت على أساسها ممرات هرم خفرع . أما البعض الآخر من علماء الآثار فقد كان يلجأ الى الحفر والتنقيب بطريقة عشوائية على أمل الوصول الى نتيجة . وهذا الهرم ، هرم خفرع ، لم تكن تجدي معه أي من الطريقتين .. الخبرات السابقة لا تفيد ، فتكوين الممر المؤدي الى حجرة الدفن لهرم خفرع بسيط للغاية لا توجد صلة بينه وبين ما في هرم خوفو . والحفر أو التنقيب العشوائي كان مخاطرة محفوفة بالعواقب الوخيمة ، بالإضافة الى احتمال تخريب هيكل الهرم نفسه .

الاجهزة تفقد عقلها !

بنى لويس الفاريز خطة عمله على الفرض التالي : الأشعة الكونية بعد أن تمر من الغلاف الجوي للارض تظل محتفظة بقدرتها على اختراق كل شيء ، بما في ذلك الأحجار الصخرية المبني بها الهرم . ومن الممكن قياس كثافة جسيمات الاشعاع الكوني ، فاذا وضعت أجهزة قياس الجسيمات الكونية داخل الهرم ، فإن كثافة الجسيمات ستكون أكبر إذا ما مرت خلال غرفة خالية ، عنها إذا ما اخترقت مادة الهرم الصخرية .

كان أفضل مكان لوضع أجهزة القياس ، هو حجرة الدفن الخالية داخل الهرم ، والتي كان بلزوني قد اكتشفها من قبل . وهذه الحجرة تقع على بعد ١٣٠ مترا أسفل قمة الهرم ، وفي منتصف هيكله بالضبط .

بدأ نقل أجهزة القياس المعقدة والتي يبلغ وزنها ٣٠ طناً في ربيع عام

١٩٦٧ . كانت المهمة شاقة للغاية فممر الهرم لا يزيد عرضه على ١٢٠ سم ، لـذا فقد كان عليه أن يفك أجزاء الأجهزة ويدخلها ، ثـم يعيد تركيبها داخل حجرة الدفن بالهرم .

وقد شارك الفاريز في هذه المهمة العالم الأثري المصري دكتور أحمد فخري ، واستاذ الطبيعة النووية بجامعة القاهرة دكتور فتحي البدوي ، بالاضافة الى فريق العمل المصاحب للاستاذ الفاريز من معمل الاشعاع بجامعة كاليفورنيا .

بعد ثلاثة أشهر من جهد تركيب الأجهزة داخل حجرة المدفن ، بدأت القياسات ، لكن ما لبث بعد ذلك أن نشبت حرب يونيو ١٩٦٧ فتوقف العمل في المشروع .

لم يستأنف العمل مرة ثانية الا في ربيع عام ١٩٦٨ . النتائج الأولى ادهشت العاملين ، فمعدل الجسيمات الاشعاعية التي وصلت الى حجرة الدفن داخل الهرم كان أعلى من المتوقع ، فأعيدت التجارب مرة ثانية من زاوية مختلفة . استغرقت القياسات عدة شهور . وكانت نتائج قياسات الأجهزة المسجلة مغناطيسياً ترسل الى العقل الالكتروني «١١٣٠ أي بي أم» التابع لجامعة القاهرة لتحليلها ، وتحويل التسجيل المغناطيسي الى رسوم بيانية .

اظهرت النتائج الأولى بوضوح حدود السطح المستوي الذي تغطي قمة الهرم ، كما اظهرت في نفس الوقت ظلاً أسود يشير الى وجود مكان مفرغ مما أثار حماس جميع العاملين في هذه القياسات لكن خابت آمالهم عندما اكتشفوا أن ذلك الظل جاء نتيجة انعكاسات أحدثتها الأجهزة

التي يعملون عليها .

وإذا كان الفاريز قد اقتنع آخر الأمر بعدم وجود حجرة دفن أخرى بهرم خفرع ، فالذي خرج به من هذه التجربة قد يكون بعيداً عن هدفها الأصلي . لقد اكتشف الفاريز ظاهرة غريبة تسيطر على الأجهزة وهي داخل الهرم ، مما يفيد وجود طاقة من نوع غير معروفة يولدها ويكثفها الهرم .

اكتشف الفاريز ان الشريط المغناطيسي الواحد الذي يحمل نتائج القياسات التي تمت داخل حجرة الدفن بهرم خفرع ، يعطي قراءات مختلفة في كل مرة يوضع فيها داخل العقل الالكتروني . وقد ارجع هذا أول الأمر الى عدم دقة عمل العقل الالكتروني التابع لجامعة القاهرة ، أو عدم خبرة العاملين عليه . لكنه عندما أرسل هذه الأشرطة الى جامعة كاليفورنيا ، تكررت نفس الظاهرة .

الطاقة المجهولة

وشبيه بهذا ، ما حدث للعلماء الأمريكيين الذين كانوا يقيسون عمر المومياءات ومحتويات المقبرة بالاعتماد على الكربون المشع . لقد واجهتهم نتائج غريبة . وشعروا أن الأجهزة الدقيقة التي ادخلوها الى المقبرة قد فقدت عقلها . كانت الأجهزة تعطي عمراً لمومياء من المومياءات أكبر من عمرها الحقيقي بما يزيد على ٥٠٠ سنة ! . ونفس الأمر بالنسبة لآنية بها حبوب وجدت بالمقبرة ، لقد أعطت الأجهزة عمراً للحبوب أكبر بكثير جداً من الآنية الموضوعة فيها .

أصبح العلماء أمام أمرين ، إما أن طريقتهم هذه التي يعتمدون عليها في قياس الأعمار غير سليمة ، مع انها مجربة وناجحة ومستخدمة في كل مكان ، أو ان قدماء المصريين عرفوا طريقة للتحكم في أثر الأشعة الكونية ، وفي تعديل أثر هذه الأشعة على تحلل المادة .

هنا قد يحق لنا أن نتساءل : ألا يجوز أن يكون هذا الخلل في قرارات وعمل الأجهزة عائداً الى الطاقة الاشعاعية الموجودة في المقابر ، والتي استخدمها قدماء المصريين لحماية هذه المقابر ؟ العلماء الذين ساهموا في تلك التجربة ، يؤكدون سلامة عمل أجهزتهم قبل دخول المقبرة وبعد الخروج منها ، لذلك يرجحون وجود طاقة خاصة غير معروفة داخل المقبرة أو حجرة الدفن بالهرم تفسد عمل الأجهزة .

هذه الظاهرة تحتاج الى مزيد من الدراسة ، دراسة يقوم بها علماء في الطبيعة بالاشتراك مع علماء الآثار لكشف سر الطاقة الاشعاعية في المدافن الفرعونية ، لعل هذا يساعدنا على حل لغز لعنة الفراعنة .

تنشيط الطاقة الكونية

يقول فيليب فاندنبرج في كتابه لعنة الفراعنة « هذا الكتاب ليس محاولة لاثبات صحة ما يطلق عليه تعبير لعنة الفراعنة . إنه مجرد بحث في الحقائق الثابتة ، والانطلاق من ذلك الى تصور التفسيرات المحتملة . ما مدى صحة الفرض القائل بأن الفراعنة قد أحالوا مقابرهم الى مصائد قاتلة ؟ كيف ؟ هل اعتمدوا في ذلك على سموم تركوها خلفهم في المقبرة ، يكون لها ذلك التأثير الفعال رغم مرور الآف السنين ؟ أم انهم

اعتمدوا على مواد ذات اشعاع ذري ؟ أم كان ذلك بتنشيط الطاقة الكونية ذات الاشعاع القوي ؟ لقد بقيت لعنة الفراعنة كما كانت ، ظاهرة لا تجد لها تفسيراً دقيقاً ، ظاهرة تمتد جذورها عميقاً الى أغوار التاريخ المصري القديم . انبتتها تلك الحضارة الّتي ما زالت معالمها باقية عبر القرون ، تبعث الحيرة والعجب في عقول العلماء المعاصرين ، وتدفعهم الى الحد من غرورهم وخيلائهم .. ! » .

المحتويات

صفحة

رقم الإيداع : ٨٧/٨٤٠٧
الترقيم الدولى : ٦ ـ ١٥٧ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

لعنة الفراعنة وهم أم حقيقة؟

- ما لم تره عين بشر منذ أكثر من ٣٥٠٠ سنة .. قضى على ٢٢ باحثاً .
- اللوح الفخاري الذي حمل لعنة الفراعنة .. كيف اختفى ؟ ومن الذي أخفاه ؟
- أول من حلت عليه لعنة توت عنخ آمون هو لورد كارنارفون .
- عملية تشريح لجثمان فرعون الذي مضى على موته
- هل عرف قدماء المصريين سر الإشعاع واستخدموه في
- ماذا جرى للعالم المصري الذي حاول علاج الناس م بالمضادات الحيوية ؟
- الزهرة المميتة التي قدمتها كليوباتره لحبيبها مارك
- ما هو سر الضفدعة القبيحة التي أبدى قدماء المصريين
- الفجل والبصل ينقذان مئات الألوف من بناة الأهرام
- أحدث أجهزة قياس الأشعة الكونية تفقد عقلها داخل الهرم .